بلاغة التعبير عن القيم التربوية في وصية الأعرابية " أمامة بنت الحارث " لابنتها ليلة زفافها

تامر محمد أحمد حجازي

قسم البلاغة والنقد ، كلية اللغة العربية ، جامعة الأزهر ، إيتاي البارود ، مصر

البريد الإلكتروني : drtamer@azhar.edu.eg

الملخص :

يدور هذا البحث حول وصية الإعرابية "أمامة بنت الحارث" لابنتها ليلة زفافها ، وهي وصية تتكون من مقدمة وعشر وصايا وختام الوصية ، وقد اشتملت في مجموعها على عشرين قيمة تربوية ، وقف عليها البحث ودرسها دراسة بلاغية تبرز بلاغة التعبير عن كل قيمة تربوية وردت في ثناياها ، وقد بينت الدراسة مدى التمازج والارتباط الأسلوبي بين ما اشتملت عليه الوصية من قيم تربوية راقية تضمن لبناتنا وأزواجنا حياة زوجية آمنة مستقرة ، إن تمسكوا بها ، وبين بلاغة التعبير عن تلك القيم ، وكيف أنها جاءت على لسان الأعرابية بأسلوب يفيض عذوبة وينضخ بلاغة ، تسحر العقول وتأخذ بالألباب .

الكلمات المفتاحية : **وصية ، الأعرابية ، ليلة الزفاف ، دراسة بلاغية .**

The Eloquence Of Expressing The Educational Values In The Will Of The Bedouin "Umama bint Al-Hareth" For Her Daughter On Her Wedding Night

Tamer Mohammed Ahmd Hgazy
Department of

Email : drtamer@azhar.edu.eg

Abstract :
This Research revolves around the will of the Bedouin Omama bent El- Hareth for her daughter on her wedding night , which is will consisting of the introduction and ten commandments and the conclusion of the will . it included in its entirety twenty educational values , upon which the Research stoods , and studied it a rhetorical study highlighting the eloquence of expressing every educational value contained in its folds . A delegation showed the study the extent of mixing and stylistic correlation between what was included in the commandment of high educational values that guarantee our daughters and aur husbands a stable marital life if they adhere to it , and the eloquence of expressing those values , and how they came on the tongue of Al-urbiyya in manner that overflows with sweetness and exudes eloquence , enchants the minds and takes the doors .

Keywords : The will , The Bedouin , Wedding Night ,

المقدمة

الحمد لله الذي علم بالقلم ، والصلاة والسلام على من بعثه ربه رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد ،،،،

فمما لا شك فيه أن الحياة الزوجية قائمة على علاقة بين الرجل والمرأة هي من أقدس وأعظم العلاقات التي ينبغي لكل عاقل وعاقلة أن يحافظوا عليها ويقدسوها ، وهذه الحياة شراكة طاهرة بين الرجل والمرأة ، لكل منهما ما له وعليه ما عليه ، ومن يريد أن يأخذ فعليه أن يعطي ، ولن تستقيم عجلة تلك الحياة حتى يعلم كل من الزوجين ما عليه من واجبات وما له من حقوق.

وفي هذه الدراسة المتواضعة تطالعنا وصية ذهبية لامرأة عاقلة حكيمة عاشت في بيئة جاهلية لم تتعلم ولم تقرأ ولم تكتب ، لكنها خُبّرت الحياة بحلوها ومرها ، وحريرها وأشواكها ، فصاغت خلاصة تجربتها في تلك السلاسل الذهبية لتكون قلادة في عنق ابنتها لما حان زواجها .

تلك الأم الأعرابية هي أمامة بنت الحارث ، وفتاتها المقبلة على عش الزوجية هي أم إياس ، خلت بها أمها وقد عرفت ما يسعد الرجل ، وما يغضبه ، لتوصيها ليلة زفافها بتلك الوصية الثمينة ، التي ينبغي أن تفهمها كل أم وكل زوجة وكل فتاة ، متجردة مما لها من حقوق كزوجة ، وموضحة لما عليها من واجبات تجاه زوجها ، وكأنها تقول لفتاتها ولكل نساء العالم : إن المرأة إذا أدت ما عليها حصلت على حقوقها تبعا لذلك دون أن تمسك الأبواق للمطالبة بحقها ، ودون أن تلجأ إلى المحاكم والقضاء .

لقد اشتملت تلك الوصية على مجموعة راقية من القيم التربوية التي امتزجت بهذا البيان الساحر ، الذي فاضت به قريحة تلك الأعرابية ، فأردت من خلال هذا

البحث أن أكشف النقاب عن بعض تلك البلاغة الراقية التي حملت لنا جملة من القيم التربوية العالية ، والتي تضمن لكلا الزوجين العيش في سعادة وهناء.

وقد وردت الوصية بروايات متعددة ، حاولت الجمع بينها من خلال الرواية الأم التي جمعت شتاتها ، مبتدئا بحثي بمقدمة ذكرت فيها منهج البحث وخطته ، ثم بمدخل بينت فيه قيمة الوصية ، ثم ذكرت المناسبة التي قيلت فيها الوصية ، ثم ذكرت نص الوصية كاملا أمام القارئ الكريم.

وقد وردت الوصية في مجملها مشتملة على عشرين وصية فرعية ، تمثل كل واحدة منها قيمة تربوية عالية ، لا غنى لأي فتاة عنها ، وقد قسمت الوصية إلى ثلاثة أقسام :

- **أولا** : مقدمة الوصية ، وتناولت فيها بلاغة التعبير عن ثلاث قيم تربوية.
- **ثانيا** : الوصايا العشر ، وتناولت فيها بلاغة التعبير عن عشر وصايا هي صلب الوصية .
- **ثالثا** : ختام الوصية ،تناولت فيه بلاغة التعبير عن سبع قيم تربوية .

ثم جاءت الخاتمة لتبرز النتائج التي أسفر عنها البحث.

ثم ختمت بحثي بفهرس للمصادر والمراجع وآخر للموضوعات .

وتبدو قيمة هذا البحث في التمازج والاختلاط بين بلاغة الأعرابية في وصيتها لابنتها ليلة زفافها ، وما اشتملت عليه تلك الوصية من قيم تربوية عالية ونصائح زوجية راقية ، تصلح لكل زمان ومكان ، فهي وصية إنسانية قيلت في عصر جاهلي ومع ذلك تضمن لبناتنا وزوجاتنا في هذا الزمان حياة زوجية مطمئنة متى التزمت بها الفتاة .

وبعد ،،، فهذه بضاعة مزجاة ، أقدمها بين يديك أيها القارئ الكريم ، راجيا منك أن تدلني على تقصيري وزللي ، وراجيا من ربي أن ينفع بها كاتبها وقارئها

وأن يجعلها سببا في سعادة البيوت ، واستقرار الحياة الزوجية لكل فتاة تتدبرها بعناية ، وأن يجعلها في ميزان والديّ . رحمهما الله تعالى . والله من وراء القصد . د تامر محمد أحمد حجازي .

مدخل

مما لا شك فيه أن صلاح المجتمع واستقراره راجع لاستقرار الأسرة وتماسكها ، والمرأة التي هي الزوجة أو الأم أو البنت أو الأخت ... الخ هي صمام الأمان لنجاح الأسرة واستقرارها ، ولذلك فإن غرس القيم التربوية والأخلاقية والاجتماعية في المرأة يعد عاملا رئيسا لنجاح الأسرة واستقرار المجتمع، وضمانا لتماسك أفراد الأسرة وعدم انهيارها.

والمرأة التي نشأت في بيئة منحلة أخلاقيا ودينيا هي نواة لأسرة مضطربة دينيا وأخلاقيا واجتماعيا ، توشك أن تنهار قواعدها وأن تتعرض للفشل والخراب فهي أسرة في مهب الريح وضررها على المجتمع واقع لا محالة ، حيث إنها تكون عبئا على المجتمع تثقل كاهله وتشيع فيه الفاحشة والفساد.

ولاشك أن الرجل له دور في هذا الأمر لا يُنكر إصلاحا أو فسادا ، لكن الحمل الأكبر والدور الأعظم تتحمله الأم التي تؤثر في بناتها وأبنائها بل وفي زوجها أشد التأثير.

والزوجة العاقلة هي بمثابة المهندسة الماهرة التي تخطط وتعد دراسات الجدوى لبناء مشروع الأسرة القوية ، والزوج هو الممول لهذا المشروع عليه الإنفاق وعليها التنفيذ والمتابعة، فإذا اختل البناء منذ اللحظات الأولى لوضع الأساس فإنه يوشك أن ينهار حين يكتمل، وانهياره يعني الموت والخراب وخسارة النفوس والأموال ، فإذا اختل بناء المرأة التي هي بمثابة المهندسة لبناء الأسرة اختل بناء الأسرة كلها ويوشك أن تنهار في وقت ما وتنتشر من خلالها سموم الفساد والإفساد في كيان المجتمع.

وإذا كانت تلك المهندسة ماهرة تجيد التخطيط وتؤذي عملها بإتقان ، فلا شك أن البناء سيكون قويا متماسكا صلبا لا تنال منه عوادي الزمن ولا تقلبات الأيام.

وهكذا الأسرة التي نشأ أفرادها في ظل امرأة حكيمة رشيدة نشأت على القيم والمبادئ وحسن معاشرة الزوج بحكمة وأناة ، والبعد عما يزعجه أو يجعله مضطربا مندفعا نحو الهدم والتخريب ، تكون بلا شك أسرة مستقيمة متزنة نفسيا واجتماعيا وأخلاقيا ودينيا ، ومن ثم تنجح وتشيع في المجتمع القيم والفضائل وتنشر الأخلاق ، وتجعله مجتمعا متماسكا قوي البنيان.

وهذا النموذج الذي تخضع له هذه الدراسة هو نموذج مشرف لأم حكيمة ، توصي ابنتها ليلة زفافها بوصايا تستحق أن تكتب بماء الذهب ، وهذه الوصايا خرجت من أم أمية لا تقرأ ولا تكتب عاشت في بيئة جاهلية ، ولما يدخل الإسلام حياتها ، ومن ثم كانت تعبيرا عن تجربة إنسانية حكيمة تدفعها فطرة نقية صافية وتحدوها أخلاق وتربية رشيدة ، فأم كهذه نشأت في تلك البيئة القاحلة ، تخرج منها هذه الشذرات الذهبية ، لا شك أنها تستحق أن تُدرس وتُدرّس بلاغتها للأجيال.

تلك البلاغة الراقية العربية الأصيلة التي تدفقت على أثلة لسانها الحكيم محملة بأجمل القيم التربوية والأخلاقية التي تضمن لبناتنا وأزواجنا ـ إن هم ساروا عليها ـ حياة آمنة مطمئنة مستقرة ، تمتلئ بالحب وتفيض بالسعادة والأمان.

بين يدي الوصية

وردت الوصية في مصادر متعددة وتناقلتها كتب الأدب ، وسوف أذكر هنا نص الوصية محل الدراسة مع مراعاة الفروق الواردة في المصادر الأخرى.

وقبل أن أذكر نص الوصية يجدر بنا أن نذكر السياق العام الذي وردت فيه الوصية.

فقد ذكروا أن الحارث بن عمرو ملك كِنْدَةَ لما بلغه جمالُ ابنة عوف بن مُحَلِّم الشيباني، وكمالُها، وقوةُ عقلها، دعا امرأة مِن كندة يُقال لها: "عصام" ، ذات عقل ولسان، وأدب وبيان، وقال لها : "اذهبي حتى تعلمي لي علم ابنة عوف".

فمضت حتى انتهت إلى أمها، وهي "أمامة بنت الحارث"، فأعلمتها بما قَدمَتْ له ، فأرسلت أمامة إلى ابنتها، وقالت: أي بنية! هذه خالتك، أتتك لتنظر إليك، فلا تستري عنها شيئًا إن أرادت النظر من وجه أو خلق، وناطقيها إن استنطقتك.

فدخلت إليها، فنظرت إلى ما لم تر قط مثله! فخرجت مِن عندها وهى تقول: " ترك الخِداع مَنْ كَشَفَ القناع "، فأرسلتها مثلاً.

ثم انطلقت إلى الحارث، فلما رآها مقبلة قال لها: ما وراءك يا عصام؟

قالت: " صَرَّح المَحْضُ عن الزَّبَد " [1] رأيت جبهة كالمرآة المصقولة، يزينها شعر حالك كأذناب الخيل، إن أَرْسَلَتْه خِلْتَه السلاسل؛ وإن مشطته قلتَ: عناقيد جَلاَها الوابل ، وحاجبينِ كأنما خُطَّا بقلم، أو سُوِّدا بِحُمَم

،تقوسا علي مثل عين ظَبْيَةٍ عَبْهَرَةٍ[2] ، بينهما أنف كحَدِّ السيف الصَّنيع[3]، حَفَّتْ به وَجْنَتَان كالأرجُوان[4]، في بياض كالْجُمَان[1]،شُق فيه فم كالخاتم، لذيذة

(١) تعنى بالزبد: رغوة اللبن، وبالصريح: اللبن الذي تحته المحض، وهذا مثل يُضرب للصدق يحصل بعد الخبر المظنون. . (ينظر : لسان العرب لابن منظور طبعة دار الحديث القاهرة الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م مادة : زبد ، صرح ، محض)

(٢) أي ممتلئة الجسم.(اللسان : عبهر)

(٣) سيف صَنيع: أي:مَجْلُوٌّ.(اللسان : صنع)

(٤) الأرجوان: شجر له زهر شديد الحمرة ، حسن المنظر وليست له رائحة وكل لون يشبهه فهو أرجوان.

المبتسم، فيه ثنايا غر ذات أشَر[٢] ، تَقَلَّب فيه لسان، ذو فصاحة وبيان، بعقل وافر، وجواب حاضر ، تلتقي فيه شفتان حَمْروان، تجلبان ريقًا كالشهد إذا دلك ، في رقبة بيضاء كالفضة، رُكبت في صدر كصدر تمثال دُمْية ، وعَضُدان مُدْمَجَان،يتصل بهما ذراعان، ليس فيهما عظم يُمَسُّ، ولا عرق يُجَسُّ ، رُكبت فيهما كفان دقيقان قصبهما لين عصبهما، تعقد إن شئتَ منهما الأنامل... إلى آخر ما ذكرت من أوصاف.

فأرسل الملك إلى أبيها فخطبها، فزوجها إياه، وبعث بصداقها، فجهزت ، فلما أراد أن يحملوها إلى زوجها، قالت لها أمها: ... الوصية[٣] .

والحقيقة أن ملابسات الوصية وما ذكرته عصام من أوصاف لابنة عوف تستحق أن تدرس في بحث مستقل ، يُعنى فيه الباحث بإبراز القيمة البلاغية للتشبيهات التي وردت على لسان عصام في وصفها الدقيق والمفصل لطبيعة جمال أم إياس ، وهي أوصاف بليغة تحتاج إلى دراسة مستقلة تُعنى بدراسة موارد الأمثال

(ينظر : المعجم الوجيز : أرج ، إصدار مجمع اللغة العربية . طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم . ١٤٢٠هـ . ١٩٩٩م)

(١) الجُمان : اللؤلؤ ، واحدته جُمَانة، وهي: حبة تُعْمَل من الفضة كالدُّرَّة. المعجم الوجيز : الجمان .

(٢) تأشير الأسنان: تحزيزها وتحديد أطرافها، يقال: أَشَرت المرأة أسنانها تَأْشِرُهَا أَشْرًا. والتأشير ضربان: خلقة، وتصنعًا، والأخير منهي عنه شرعًا، والله أعلم اللسان : أشر

(٣) الفاخر للمفضل بن سلمة بن عاصم، أبو طالب (المتوفى: نحو ٢٩٠هـ) تحقيق: عبد العليم الطحاوي: ١٨٤ ــ ١٨٧مراجعة: محمد علي النجار . الناشر: دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي . الطبعة: الأولى، ١٣٨٠ هـ

العربية دراسة بلاغية ، وهو باب جديد وثري يحتاج من الباحثين إلى طرقه وفتحه واستخراج ما فيه من كنوز بلاغية .

نص الوصية

لما حان أن تُحمل " أمُ إياس " إلى زوجها : " الحارث بن عمرو " ملك كندة خلت بها أمها " أمامة بنت الحارث " وقالت توصيها :

" أي بنية، إن الوصية لو تُرِكَتْ لفضلِ أدبٍ، تُرِكَتْ لذلك منك، ولكنها تذكرة للغافل، ومعونة للعاقل.

ولو أن امرأة استغنت عن الزواج لغنى أبويها، وشدة حاجتهما إليها ؛ كنتِ أغنى الناس عنه، ولكن النساء للرجال خُلِقْنَ، ولهن خُلِقَ الرجال.

أي بنية، إنك فارقت الجو الذي منه خَرَجْتِ، وخَلَّفْتِ العُشَّ الذي فيه دَرَجْتِ، إلى وَكْر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فأصبح بملكه عليك رقيبًا ومليكًا ، فكوني له أَمَةً يَكُنْ لكِ عبدًا وَشيكًا.

أي بنية، احملي عنى عشر خصال، تكن لك ذخرًا وذكْرًا.

• الصحبة بالقناعة، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة.

• والتعهد لموقع عينه، والتفقد لموضع أنفه؛ فلا تقع عينُه منكِ على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح.

والكحل أحسن الحسن الموجود، والماء أطيب الطيب المفقود.

• والتعهد لوقت طعامه، والْهُدُوُّ عنه عند منامه؛ فإن حرارةَ الجوعِ مَلْهَبة، وتنغيصَ النوم مغضبة.

• والاحتفاظ ببيته وماله، والإرعاء على نفسه وحِشمه وعياله، وملاك الأمر في المال حسنُ التقدير، وفي العيال والحَشَم حسن التدبير.

• ولا تفشي له سرًّا، ولا تعصي له أمرًا؛ فإنك إن أفشيتِ سره لم تأمني غدره، وإن عصيت أمره أَوْغَرْتِ صدره.

ثم اتقي مع ذلك الفرح إن كان تَرِحًا ، والاكتئاب عنده إن كان فرحًا؛ فإن الخصلة الأولي من التقصير، والثانية مِن التكدير.

وكوني أشدَّ ما تكونين له إعظامًا؛ يكن أشدَّ ما يكون إكرامًا ، وأشد ما تكونين له موافقة؛ يكن أطولَ ما تكونين له مرافقة.

واعلمي أنك لا تَصِلِين إلى ما تُحبين حتى تُؤْثري رضاه على رضاك، وهواه على هواك، فيما أحببتِ وكرهت، والله يَخير لك ".

فَحُمِلَتْ فَسُلِّمَتْ إليه، فَعَظُم مَوْقِعُهَا منه، وولدتَ له الملوك السبعة الذين ملكوا بعده اليمن.(١)

(١) العِقد الفريد : ٧/٧٧-٧٨ تحقيق العريان ط/ دار الكتب العلمية ، و جمهرة الأمثال – لأبي هلال العسكري : ١/ ٥٧١.٥٧٢ .

– دار الفكر الطبعة الثانية ، ١٩٨٨ تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم و عبد المجيد قطامش و مجمع الأمثال – لأبي الفضل النيسابوري : ٢ / ٢٦٢ الناشر : دار المعرفة – بيروت تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد ، وجمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة المؤلف: أحمد زكي صفوت : ١: ١٤٥ ـ ١٤٦ ـ الناشر: المكتبة العلمية بيروت–لبنان.

بلاغة التعبير عن القيم التربوية في نص الوصية :

أولا : مقدمة الوصية

(لما حان أن تُحمل " أمُ إياس " إلى زوجها : " الحارث بن عمرو " ملك كندة خلت بها أمها " أمامة بنت الحارث " وقالت توصيها :

" أي بنية، إن الوصية لو تُرِكَتْ لفضلِ أدبٍ، تُرِكَتْ لذلك منك، ولكنها تذكرة للغافل، ومعونة للعاقل.

ولو أن امرأة استغنت عن الزواج لغنى أبويها، وشدة حاجتهما إليها ؛ كنتِ أغنى الناس عنه، ولكن النساء للرجال خُلِقْنَ، ولهن خُلِقَ الرجال.

أي بنية، إنك فارقت الجو الذي منه خَرَجْتِ، وخَلَّفْتِ العُشَّ الذي فيه دَرَجْتِ، إلى وَكْر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فأصبح بملكه عليك رقيبًا ومليكًا ، فكوني له أَمَةً يَكُنْ لكِ عبدًا وَشيكًا.

أي بنية، احملي عنى عشر خصال، تكن لك ذخرًا وذكْرًا.)

بلاغة التعبير عن القيمة التربوية الأولى في مقدمة الوصية :

((حرص الأم على الخلوة بابنتها لإسداء النصح لها ليلة الزفاف لتهيئتها لاستقبال عش الزوجية الجديد))

وهي قيمة تربوية عالية تضمن للزوجين استقرارا أسريا في حياة زوجية جديدة، وتتمثل بلاغة القيمة التربوية هنا في مقدمة الوصية في مهارة عرضها الفعال وهو ما يعرف في البلاغة بـ " براعة الاستهلال"

وبراعة الاستهلال لها نصيب كبير من ضمان إصغاء السامع وشد انتباهه، وتبدو براعة الاستهلال في عرض هذه الوصية القيمة من رواة الأدب العربي .

وقد جاء هذا اللون البديعي الخلاب في مقدمة الوصية منسجما مع ما تشتمل عليه من قيم تربوية واجتماعية راقية ، حيث عرضت بأسلوب ماتع يستميل قلب السامع ويضمن إصغاءه هكذا :

" لما حان أن تُحمل " أمُ إياس " إلى زوجها : " الحارث بن عمرو " ملك كندة ، خلت بها أمها " أمامة بنت الحارث " وقالت توصيها : "

وقد بدت براعة الاستهلال هنا في عرض الوصية بإيجاز شديد يبرز مقامها وزمانها وشخصياتها ، كل ذلك من خلال جملة كبرى فعلية مصدرة بـ "لما" الحينية ، طوت بداخلها عدة جمل صغريات ، وهي جملة : " أن تُحمل .." ، وجملة جواب "لما" وهي : " خلت بها أمها .." ، والجملة المعطوفة عليها : "وقالت توصيها".

وهذا العرض البارع في جذبه وإيجازه يجعل السامع حاضر الذهن مشدودا ، يضمن المتحدث عدم شروده أو مله ، ويتأكد من السيطرة عليه وضمان الإصغاء إليه.

و"لما" هنا هي "لما" الحينية وهي ظرف فيه معنى الشرط ، ومن ثم أتبعت بلفظ الحين "حان" ، والحين والحينونة تُشعر بحلول الأجل المعلوم وانقضاء الوقت والتأهب للرحيل والفراق والانتقال من حال إلى حال، فهو يُشعر بتوصيف بالغ بمادته إلى إحساس الفتاة بفراق بيت والديها، وحلول أجل الفراق لا محالة استعدادا لحياة جديدة ، وجاء فاعل فعل الحين " أن تُحمل " مصدرا مؤولا من أن والفعل ، أي لما حان حمل ، ومجيئه هكذا أبلغ من المصدر الصريح ، حيث أتاح الفعل المضارع الذي دخلت عليه "أن" مساحة للدلالة على أنها لم تحمل بعدُ وأنها ستحمل في الغد القريب لا محالة .

وقد عرف المسند إليه : " نائب الفاعل " : أم إياس " بالعلمية عن طريق الكنية وهي لم تتزوج بعد ولم تلد حتى تصير أما ، تكريما لها وصونا لاسمها أن

يُذكر ، وهذه عادة العرب حيث كانوا يكنون بناتهم وفتياتهم حتى قبل الزواج ، إكراما لها وتيمُّنا بأن تكون أما في الغد القريب .

وجاء متعلق فعل الحمل جارا ومجرورا : " إلى زوجها الحارث بن عمرو ملك كندة " مع أنه لم يصر زوجها بعد ، باعتبار ما سيكون على طريقة المجاز المرسل ، لأنه سيكون زوجها غدا فقد كانت الوصية ليلة الزفاف ، أو أنه قد عقد عليها كما هي العادة أن يتم العقد قبيل الزواج بيوم أو يومين ، و " إلى : غائية تُشعر أن الزوج غاية كل امرأة ومطمح آمالها ونهاية حلمها .

وقد نص على اسم زوجها وأتبعه بعطف بيان يعد كاشفا لصفته وحقيقته وهو قوله : " ملك كندة " ، ليبرز أنها زُفت إلى ملك وليس أي ملك ، إنه ملك كندة ، وقد ورد أن الحارث لما سمع بجمالها بعث إليها مع امرأة يقال لها عصام ذات عقل وبيان لتصف جمالها له ، فوصفت له جمالها وعقلها وصفا كافيا كاشفا فبعث إلى أبيها يخطبها منه فجهزها ، فلما كانت ليلة الزفاف خلت بها أمها لتوصيها بهذه الوصية .

والخلوة : الانفراد ، وخلو الأم بفتاتها لترفع عنها الحرج في النصح أمام أخواتها أو غيرهم ، وقد نصت الرواية على اسمها : " أمامة بنت الحارث " وكانت من حكيمات العرب المشهورات بالعقل الراجح والرأي السديد ، ولذلك خلت بها وأخذت توصيها ، وقد أبرز الفعل المضارع : " توصيها " بصيغته تجدد الوصية على لسانها حسب مقتضيات الحاجة والمقام ، حيث تُزفُّ الفتاة إلى ملك من ملوك العرب .

والقيمة التربوية الأولى هنا تتمثل في أن الأمهات يجب أن يجلسن مع فتياتهن قبيل الزفاف لإسداء النصح إليهن ، وأن تشمل الأم ابنتها بعطفها وحنانها

وتشد على يدها أن تنسى حياة الدعة والتدلل لتستعد لحياة الاستقرار النفسي في كنف زوجها.

وقد بدت براعة هذه القيمة التربوية في براعة الاستهلال ؛ حيث عُرضت بأسلوب ممتع اعتمد على الإيجاز والتركيز في جملة واحدة ، احتوت بداخلها جملا ثلاثا مع عدم الإخلال بالمعنى ، حيث نصت من خلالها . رغم قصرها . على شخصيات القصة الثلاثة ، وصفة كل شخصية بوضوح وجلاء دون لبس أو خفاء .

وبراعة الاستهلال كذلك تتمثل في النص على المقام الذي قيلت فيه هذه الوصية ، فهي وصية أم لابنتها ليلة زفافها على ملك له قدره وخطره ، وقد أبرز النص على أسماء الشخصيات مع ذكر بعض صفاتهن ثقل الوصية ؛ فالأم من حكيمات العرب ، والفتاة من جميلات النساء ، وافرة العقل والجمال ، والزوج ملك أصيل له قدره وخطره ، ولذلك ضمن هذا الاستهلال البارع جذب انتباه السامع والاستيلاء على قلبه وعقله قبل سمعه وبصره .

وفيها كذلك لون من ألوان التشويق ، حيث إن القلوب بطبيعتها تتشوق إلى معرفة ما يتعلق أو ما يصدر من الحكماء والملوك ، ولذلك خرجت تلك الوصية الذهبية في أبهى حلة وأجمل صورة ، توافقا مع المقام وأقدار المتكلمين والمخاطبين ، فكانت بمثابة قلادة ذهبية وضعتها الأم الحكيمة في عنق ابنتها وهي على عتبة الوداع .

بلاغة التعبير عن القيمة التربوية الثانية في مقدمة الوصية

((الوصية تذكرة للغافل ومعونة للعاقل))

والقيمة التربوية الثانية في مقدمة الوصية كانت من كلام الأم ؛ حيث بينت لها أن جلوسها معها ليلة زفافها على انفراد لتوصيها ليس دليلا على قلة أدبها أو انعدام معرفتها ، وإنما هو من باب الذكرى تقول :

" أي بنية، إن الوصية لو تُرِكَتْ لفضلِ أدبٍ، تُرِكَتْ لذلك منك، ولكنها تذكرة للغافل، ومعونة للعاقل ، ولو أن امرأة استغنت عن الزواج لغنى أبويها، وشدة حاجتهما إليها ؛ كنتِ أغنى الناس عنه، ولكن النساء للرجال خُلِقْنَ، ولهن خُلِقَ الرجال."

والقيمة التربوية هنا تتمثل في حرص الأم على بث الثقة في نفس ابنتها ، فقد جمعت بين الأدب الجم وغنى الوالدين ، ومع ذلك فهي تحتاج للوصية ؛ لأن الوصية تذكرة للغافل ومعونة للعاقل.

وتلاحظ هنا أن الأم وجهت وصيتها لفتاتها بأسلوب إنشائي وهو النداء : "أي بنية" ، وهي بذلك تنبهها إلى قيمة كلامها حتى تتشوق وتتأهب لتلقي ما يأتي بعده، واختيار "أي" من بين أدوات النداء ، وهي تأتي لنداء القريب[1] لقرب ابنتها منها حسا ومعنى ومكانا وزمانا ، فأقرب إنسان إلى الفتاة هو أمها، وصغرت المنادى "بنية" ؛ تصغير "ابنة" ؛ لتشير إلى براءتها وعفويتها فما زالت غضة نقية لم يلوث معدنها حراك الزمان وآفات الأيام ، ووراءها إيحاء بإشفاق الأم الرؤوم وحنوها البالغ على فتاتها اليافعة .

ثم أردفت هذا النداء بأسلوب خبري : " إن الوصية لو تُرِكَتْ لفضلِ أدبٍ، تُرِكَتْ لذلك منك " والمخاطب وهو الفتاة ، خالية الذهن فحقها أن يلقى إليها الخبر ابتدائيا خاليا من التأكيد ، وهي منقادة سامعة مطيعة لأمها ، ولكنها نزلت منزلة المتردد ؛

(١) الجنى الداني في حروف المعاني للحسن بن قاسم المرادي : ٢٣٣ تحقيق : فخر الدين قباوة . محمد نديم فاضل دار الكتب العلمية

ولذا جاء الخبر مؤكدا بمؤكدين استحسانا وهما " إن " واسمية الجملة؛ دفعا لتوهم الفتاة أن تكون أمها حريصة على وصيتها شكا منها في أخلاقها أو أدبها ، فأزالت بالتأكيد هذا الوهم وجعلتها مفعمة بالثقة في نفسها وأدبها .

وقد علقت الأم الحكيمة افتراض ترك الوصية على زيادة الأدب بأسلوب الشرط بـ" لو " ، وهي حرف امتناع لامتناع ، وهي تربط أجزاء الجملة ربطا قويا ، وقد جاء المسند أليه معرفا بأل " الوصية " للإشارة إلى عموم الوصية ، واختارت لفظ الوصية دون النصيحة أو الإرشاد أو عيرهما ؛ لمناسبتها لمقام الحديث الحاني من أم لابنتها ليلة زفافها، وبنت الفعل للمجهول " تُركت " ؛ لتشير إلى عموم حكمتها وشيوع قضيتها ، فليس الحكم هنا مقصورا على الأم وفتاتها، وإنما هو حكم إنساني عام يصلح لكل زمان ومكان ، ولم تقل : " لو تركت لأدب " وإنما قالت : " لفضل أدب " ؛ للإشارة إلى زيادة أدبها وسمو أخلاقها ، ولذلك جاء جواب الشرط : " تركت لذلك منك " ، مشيرة إلى أدبها باسم الإشارة الذي للبعيد مع لام البعد " لذلك " ، لتشير إلى تجذُّر الأدب في مبادئها ، ثم أردفت الأم الحكيمة علة وصيتها لفتاتها قائلة : " ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل "

وهو استدراك يوحي بعلة واقعية للوصية ، ويبعد عن الفتاة شوائب الارتياب أو الشك في ثقة أمها بها ، ويطبع الوصية بالطابع الإنساني العام .

ونلاحظ أنها جاءت بالتذكرة مع الغافل وبالمعونة مع العاقل ؛ لأن الغافل أحوج ما يكون إلى التذكرة ، والعاقل يحتاج إلى المعونة بالرأي والحكمة الرشيدة وبين الغافل والعاقل جناس ناقص ، أبرز الحالتين اللتين يجدي فيهما النصح وتنفع معهما الوصية ، وهما أن يكون الإنسان لاهيا غافلا فتذكره الوصية بما عليه من حقوق وواجبات ، والثاني أن يكون عاقلا حكيما ولكنه يحتاج إلى من يأخذ بيده ويعينه على الطريق المستقيم.

والأسلوب هنا خبري والغرض من الخبر إرشاد الفتاة إلى أن أمها لا توصيها لأنها فاقدة للأدب ؛ وإنما توصيها تذكرة لها وعونا على خوض غمار حياة جديدة.

ثم أردفت ذلك بقولها :

" ولو أن امرأة استغنت عن الزواج لغنى أبويها، وشدة حاجتهما إليها ؛ كنتِ أغنى الناس عنه، ولكن النساء للرجال خُلِقْنَ، ولهن خُلِقَ الرجال."

وهنا تعود الأم للشرط بلو الامتناعية مرة أخرى ؛ لتبرز تلك الحقيقة الإنسانية التي فطر الله ـ عز وجل ـ عليها بني البشر نساء ورجالا ، وهي تتمثل في حاجة الرجل للمرأة وحاجة المرأة للرجل ، وتلك فطرة وجبلة ، ومن ثم لا مجال لاستغناء أحدهما عن الآخر .

وليس الأمر مرتبطا بغنى الوالدين أو كبر سنهما ، ومن ثم يحتاجان لابنتهما لخدمتهما في هذا الوقت العصيب ، والأسلوب خبري مجرد عن التأكيد ؛ لأنه يقرر حقائق إنسانية مجردة وفطرة واقعية لا شك فيها.

وتنكير المسند إليه " امرأة " طبع كلامها بطابع العموم ، وأخرجه من دائرة التخصيص بابنتها وحدها، وجاءت جملة الصفة : " استغنت عن الزواج لغنى أبويها وشدة حاجتهما إليها " ؛ لتبرز صفة افتراضية جدلية لتلك المرأة المتوهمة حيث لا وجود لها في الحقيقة والواقع ، لأن استغناءها عن الزوج يعني مخالفتها لفطرة البشر ، ، وأبرزت لام التعليل سبب هذا الاستغناء المزعوم : " لغنى أبويها وشدة حاجتهما إليها " ، وهي علة قد تكون أقرب العلل قبولا وإن كانت مرفوضة أصلا ، فالمرأة هنا تحصّل لها من أسباب العزوف عن الزواج ما يعوضها عن الزوج من ناحية وهو غنى أبويها ، وما يجعلها تنصرف عنه لأهميتها القصوى لدى طرف آخر من ناحية ثانية ، وهي شدة حاجة والديها إليها ؛ حيث نزل بهما الهرم وحلت الشيخوخة والضعف ، وكثرت الأمراض وصارا في أشد الحاجة لفتاة تخدمهما

، لا سيما إذا كانت هي الوحيدة بعد زواج أخواتها ، أو الكبرى مثلا ، ومع وجود هذه البواعث والأسباب التي تدعو للعزوف عن الزواج ، وعدم الرغبة فيه عقلا ، إلا أن المرأة لا تستغني عن زوجها فطرة ، وقد توفر ذلك في "أم إياس" عروس الليلة ، ولذلك أفصحت الأم عن ذلك بجواب "لو" وهو قولها : " كنت أغنى الناس عنه " ، وهذا الجواب يوحي بأمرين :

- **أولهما** : أن الفتاة ذات أصل وحسب ونسب ، وانحدرت من بيت عز وغنى ورفاهية ، لا تحتاج مالا ولا جاها فهي عزيزة في قومها منيعة بين أبويها وليس الغنى هنا صفة للوالد فقط أو الوالدة ، وإنما هو صفة لهما جميعا : " لغنى أبويها " ، وهذه وحدها كفيلة لزرع جذور الثقة في نفس الفتاة ، ونزع الرهبة التي يمكن أن تكون في قلبها، حيث إنها تتزوج ملكا تجهل طباعه ، وهو ملك انقادت له الدنيا ، وهذا ما يمكن أن يجعل الفتاة تشعر بنقصان كفتها ورجحان كفة زوجها في الكفاءة ، فعدلت الأم كفتهما بهذا الجواب.

- **والأمر الآخر** : هو " شدة حاجتهما إليها " وهو يدل على ضعفهما في هذا الزمان وعظم احتياجهما للفتاة.

إن الأم قد ساقت عللا افتراضية أقرب إلى العقل والواقع ، ومع ذلك قد تحققت لفتاتها ، ولكنها مع ذلك تعود للحقائق التي لا يجادل فيها بشر والتي هي من المسلمات عند بني الإنسان وبين الرجال والنساء:

" ولكن النساء للرجال خلقن ولهن خلق الرجال "

هكذا بهذا الاستدراك لتبرز تلك الحقيقة الإنسانية .

وبدأت بالنساء ؛ لشدة حاجة الرجل للمرأة ، فكلا الطرفين مخلوق للآخر لتسير عجلة الحياة ويستمر النسل الآدمي ، ولتنقضي الرغبات والحاجات الفطرية بالحلال.

وهذا الاستدراك يخاطب الفطرة السوية ويقرر في هدوء شدة حاجة الرجل للمرأة وشدة حاجة المرأة للرجل مهما اجتمع لكل منهما من أسباب الرفاهية أو دواعي العزوف عن الزواج.

إن الأم العاقلة تمهد لابنتها تمهيدا فطريا يتوافق مع مشاعر المرأة وطبيعتها الأنثوية ، وكأنها تهيئها بذلك لاتخاذ بيت زوجها مصدر أمن وأمان لها فهو مستقرها ولا غنى لها عن أحضانه ، مهما توفرت لها عواما الدعة والراحة والحاجة في بيت أبويها.

إن الحياة الهادئة الهانئة الآمنة لكي تتحقق لا بد أن تعيش المرأة في ظل الرجل والرجل في دفء المرأة ، ولا بديل عن ذلك بضوابطه الشرعية حتى تستقيم عجلة الحب والتضحية والعطاء .

وهذه الحكمة الراقية التي تصدر من امرأة أمية عاشت في بيئة جاهلية تتوافق في فطريتها مع مضمون القرآن الكريم حيث يقول تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ الروم: ٢١ .

فقد ورد فعل الخلق في الآية متعديا باللام ، وهي لام الملك أو التخصيص ، كما ورد في الوصية ، ولكنه في الوصية جاء مبنيا للمجهول ؛ لأنها تتحدث حديثا عاما وحكمة مرسلة ، بخلاف الآية فقد ورد الفعل مبنيا للمعلوم وهو الله عز وجل لأن الآية مبنية على الخطاب ، ووردت في مقام تعداد آيات الله على الإنسان ، ولا مجال للمقارنة بين الآية والوصية ، فهذا كلام وذاك كلام آخر ، غير أننا نلفت إلى ما انضوت عليه الآية الكريمة من بلاغة عالية ، حيث جعلت المرأة جزءا من نفس

الرجل لا يتجزأ منه ، فهي مخلوقة منه ثم أردفت علل هذا الخلق في قوله :﴿ لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ الروم: ٢١.

ففصّلت الآية بهدوء تام وسكينة عالية ما سكتت عنه الوصية من علة الخلق والزواج وهو تحقيق السكينة والاطمئنان والاستقرار ، ثم انظر إلى القدرة القاهرة التي جعلت بين الزوجين مودة ورحمة ، والمودة من مقتضيات الحب ، والرحمة ضمانة لاستمرار الحياة إذا نقص الحب أو انعدم ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ النساء: ١٩

وختم الآية بما بدأها به :﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ الروم: ٢١ فدل على أن هذه الفطرة التي فطر الله الناس عليها آية من آيات الله ، وسبب من أسباب التفكر في خلق الله وقدرته وحكمته سبحانه.

بلاغة التعبير عن القيمة التربوية الثالثة

((توطين الفتاة على مواجهة حقيقة الفراق والانتقال إلى عشها الجديد))

تقول الأعرابية :

" أي بنية، إنك فارقت الجو الذي منه خَرَجْتِ، وخَلَّفْتِ العُشَّ الذي فيه دَرَجْتِ، إلى وَكْر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فأصبح بملكه عليك رقيبًا ومليكًا ، فكوني له أَمَةً يَكُنْ لكِ عبدًا وَشيكًا.

أي بنية، احملي عنى عشر خصال، تكن لك ذخرًا وذكْرًا."

وهنا تعود الأم إلى نداء ابنتها بهذه الصيغة : " أي بنية " ، للحرص على إبراز قربها الشديد من فتاتها ، وفي تكرار النداء بصيغته إشارة إلى حرص الأم على جذب انتباه ابنتها التي تتأهب للانتقال إلى بيت زوجها ، حتى تأخذ نصائحها ووصاياها مأخذ الجد ، وتجعلها نصب عينيها دائما .

وبعد أن نادتها ألقت إليها خبرا ابتدائيا الغرض منه تحقيق لازم فائدة الخبر فالفتاة تعرف أنها ستفارق بيت أبيها إلى بيت زوجها : " إنك فارقت الجو الذي منه خَرَجْتِ، وخَلَّفْتِ العُشَّ الذي فيه دَرَجْتِ " ، ولكنها أرادت أن تذكرها بمقتضيات الحياة الجديدة ، وأنها ستكون حياتها الأصلية ولن تعود لبيت أبيها إلا أن تكون زائرة.

والفتاة لا تنكر هذا الفراق ولا تتردد فيه ، فحقها أن يلقى إليها الخبر ابتدائيا خاليا من التأكيد ، لكن أمها نزلتها منزلة المتردد فأكدت الخبر بمؤكدين استحسانا ، وهما " إن " واسمية الجملة ؛ لما بدا عليها من أمارات القلق والتوتر والتأكيد ينقل لنا الحالة النفسية التي كانت عليها الفتاة من شدة تعلقها ببيت أبيها وتوجسها من القدوم على عش جديد غامض المعالم مبهم الأسرار.

وقد اختارت لفظ الفراق للإشارة إلى أنه فراق بلا عودة إلا للزيارة . كما قلت . وفي ذلك زج بالفتاة في قلب الحدث ، وتكليف لها بتحمل المسؤولية وإشعار بجدية

الأمر ، ولو أن نساء اليوم فعلن مع بناتهم مثل ما فعلت أمامة لاستقامت عجلة الحياة الزوجية لدى أكثرهن ، ولقلت نسب الطلاق والفشل في الحياة الزوجية التي كثرت في هذا الزمان بطريقة مذهلة ، بسبب تدليل الأم لبناتها وعدم تحميلهن المسؤولية والضعف العاطفي للوالدين أمام دلال الفتاة ، ومن ثم انعكس ذلك عليها سلبا ، حيث استهانت بقيمة الحياة الزوجية وشعرت معها أنها تجربة عادية تخوضها ، قد تنجح وقد تفشل وتعود لبيت أبيها .

إن أمامة أصدرت قرا ر الفراق " إنك فارقت الجو الذي منه خرجت " مؤكدا هكذا لتغلق أبواب التردد والمماطلة ووساوس الشيطان أمام ابنتها، ولتؤهلها نفسيا لتقبل أن تكون الحياة القادمة هي حياتها الأبدية.

وقد عبرت عن بيت أبيها بالجو ، والجو : الهواء ، والجو ما بين السماء والأرض [1] ، وهي كناية عن بيت أبيها ، وإنما اختارت لفظ الجو على البيت ؛ لأن لفظ الجو يعني الهواء الذي استنشقته والعادات التي نشأت عليها ، واختلطت بتكوينها وصارت جزءا لا يتجزأ من حياتها ، ومع ذلك فإنها ستفارقها .

ووراء ذلك إيحاء بأن الحياة الجديدة سيكون لها جو آخر وهواء مختلف وطبيعة جديدة ، وقد تصدم الفتاة المدللة إذا لم تهيأ نفسيا ، وعبرت بالماضي " فارقت " مع أنها لم تفارق بعد ، تأكيدا على تحقق الفراق في الغد القريب ، فزمان الوصية ليلة العرس.

وما أجمل أن تعتبر الأم بيت زوجها عشا لصغارها : " وخلفت العش الذي فيه درجت " ، على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية ، حيث شبهت بيت أبيها بعش الطائر ، بجامع الدفء والحنان والاحتضان ، ثم استعارت العش لبيت أبيها وهي استعارة عميقة تتغلغل في حنايا النفس البشرية لتبرز لك هذه الصورة الدافئة في

(١) اللسان : جوا

ثوب حسي ، تراه بعينيك وتلمسه بيديك وتشعر به بحسك ومشاعرك ، فالوالد كالطائر الذي ينطلق صباحا ليوفر لفراخه وصغاره لقمة العيش ، ويعود مساء ليقوتهم ويحميهم من غوائل الزمان ونوازل الحدثان وظلم الظالمين وتطفل المتطفلين ، إنه مصدر الأمن والأمان للأسرة ، معه يشعر الأبناء والزوجة بالدفء الذي يشعر به الفراخ في عشهم مع أبيهم وأمهم ، فالبيت للفتاة بمثابة عش الطائر ، تديره أم بارعة وأب حنون ، ويبثان في أعطافه الدفء والحنان .

وقد عبرت هنا بالفعل " خلفت " ؛ للإشارة إلى الترك وضرورة عدم تعلق القلب ببيت أبيها .

ولاحظ الجناس الناقص بين : " خرجت " و " درجت " ، بحرف واحد وهو الحاء مع الدال وهو يتوافق صوتيا لكنه يختلف من حيث المادة ، ومادة كل كلمة موافقة لسياق جملتها ، فالخروج ابتداء يكون من بيت الوالد ، ولذا عبرت معه بمن الابتدائية " الذي منه خرجت" وخروجها من بيت أبيها يكون وهي فتاة غضة جاهزة للزواج ، والدرج والدرجان يناسب تنقل الصغير في ربوع البيت ولعب الفراخ في أحضان العش ، قال في اللسان : " والدرجان : مشية الشيخ والصبي ، ويقال للصبي إذا دب وأخذ في الحركة : درج ، ودرج الشيخ والصبي يدرج درجا ودرجانا ودراجا فهو دارج : مشيا مشيا ضعيفا ودبا "[1]

فالدرج يتوافق مع نشأة الفتاة وهي صغيرة ، فقد استوعبت بهذا الجناس الناقص بين " خرجت ودرجت " أطوار سن فتاتها منذ نعومة أظفارها حتى خروجها من بيت أبيها لبيت زوجها، واختيار حرف الظرفية "في" في قولها : " الذي فيه درجت " يشعر بظرفية العش وأنه وطاء ممهد تدرج فيه الصغيرة حيث شاءت .

(١) اللسان : درج

ثم قالت : " إلى وكر لم تعرفيه وقرين لم تألفيه " والوكر : عش الطائر الذي يبيض فيه ويفرخ وهو الخروق في الحيطان والشجر " [١]

وقال في أساس البلاغة : " ما دار في فكري نزولك في وكري ". [٢]

ففي قول أمامة : " إلى وكر لم تعرفيه " استعارة تصريحية أصلية ؛ حيث شبهت بيت زوجها بعش الطائر ، بجامع الدفء والاحتضان والرعاية في كل منهما ، ثم استعارت الوكر الذي هو عش الطائر إلى بيت زوجها ، ووراءها إشعار بدفء الحياة الزوجية في أحضان بيت يقوده زوج حكيم يعرف ماله وما عليه.

واختيار لفظ الوكر هنا مع بيت الزوج بينما العش مع بيت الأب ؛ لإلفها للأول وهو بيت أبيها ، وغموض الثاني بالنسبة لها ، فهو وكر لا تعرف ما يجري فيه ، ولذلك قالت : " لم تعرفيه " أي لا عهد لك به، ومما يعضد ذلك تعريف العش هناك ؛ لقرب عهدها به فأل فيه للعهد الذهني ، بينما نكرت الوكر مع الزوج ، لغموضه ، وهي كلمة توحي بالرهبة بمادتها بخلاف العش مع بيت أبيها الذي يوحي بالدفء والأمان .

ثم صرحت بصاحب هذا الوكر وهو زوجها فقالت : " وقرين لم تألفيه " فزوجها هو قرينها ؛ لأنه مصاحب لها ملازم لعشرتها لا يفارقها ولا تفارقه ، وقد وصفت القرين بجملة : " لم تألفيه " يقال : ألف وجوده معه : أنس به اعتاد عليه عاشره " [٣]

---

(١) اللسان : وكر

(٢) أساس البلاغة تأليف : جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري : وكر تقديم : د محمود فهمي حجازي سلسلة الذخائر مايو ٢٠٠٣

(٣) المعجم الوسيط : ألف

فزوجها لم تألفه بعد ، ولم تأنس به ولم تتعود عشرته ، فهو غامض مجهول الحال ، ومن ثم يتوجب عليها أن تتحمل ما يصدر عنه .

وبين " تعرفيه وتألفيه " جناس ناقص بحرفين ، والحرفان هما العين مع الهمزة ، وكلاهما من مخرج واحد وهو الحلق ، والراء مع اللام وكلاهما من طرف اللسان ، والمعرفة غير الألفة ، فالإلف يقتضي المعرفة بلا عكس ، والمعرفة مناسبة للوكر لأنه مكان ، والإلف مناسب للزوج ، ولاحظ ذكر الوكر والقرين :

- **الأول** : يشعر بالدفء . كما سبق . والغموض ، وفيه إشارة إلى أنها تتقبله حتى ولو كان بسيطا ، فقد ذكروا عن الوكر أنه عش الطائر الذي يبيض فيه ويفرخ ، وهو الخروق في الحيطان والشجر. (١)

فكأنها تقول لابنتها : فلتعيشي في بيت زوجك حتى ولو كان عشا من طين ومن أوراق الشجر ، وفيه كذلك تفاؤل بإنجاب الولد يؤخذ ذلك من قولهم " موضع الطائر الذي يبيض فيه ويفرخ "

- **والثاني** : وهو القرين يشعر بدوام الملازمة والصحبة وعدم الانفكاك من أسره أو رباطه ، فكأنها تهيئها لحياة أبدية .

ثم قالت : " فأصبح بملكه عليك رقيبًا ومليكًا ، فكوني له أَمَةً يَكُنْ لكِ عبدًا وَشيكًا "

وقد عطفت الأم هذه الجملة بفاء التعقيب التي توحي بالسرعة ، وأنها بمجرد عقد زواجها صار زوجها مليكا عليها ورقيبا ، وقد دعمت " أصبح " هذا المعنى ؛ فسوف يكون في الصباح الباكر زوجا لها ، ودخلت باء السببية أي بسبب ملكه عليك مع "على" التي تفيد الاستعلاء لتؤكد قوامة الرجل على زوجته وأن ذلك من مقتضيات الفطرة ، بل ومن متطلبات المرأة السوية كاملة الأنوثة ، وقد جعلته

(١) السابق والمادة

بسبب عقده عليها رقيبا أي مراقبا لأعمالها وحركاتها وسكناتها ، ووراء هذا الوصف إيحاء لابنتها بأن تراعي تلك الرقابة التي ستكون عليها ومن ثم تصون نفسها من الزلل ، وصار عليها مليكا وهو صيغة مبالغة من الملك ، وهو ليس ملك يمين أو استرقاق أو عبودية ، وإنما ملك قوامة واحتضان.

وقد أردفت ذلك بقولها : " فكوني له أَمَةً يَكُنْ لكِ عبدًا وَشيكًا" وهنا تبدأ الأم في الدخول في وصيتها شيئا فشيئا، لكنها قبل أن تفصل الخصال العشر تتحفها بهذه الهدية الذهبية العامة : " فكوني له أَمَةً يَكُنْ لكِ عبدًا وَشيكًا" والوشيك : السريع والقريب[1] وقد جاء الأسلوب في ثوب الإنشاء ، فهو أمر أريد به النصح والإرشاد "كوني" وجوابه : "يكن" فالعطاء مقابل العطاء ، ومن قدم الخير حصد الخير ، وانظر إلى بلاغة المرأة في الإتيان بلام الملكية أو التخصيص "له" أي خاصته وحده دون سواه ، والأمة موادعة بطبيعتها الأصل فيها أن تكون سامعة مطيعة ، فشبهتها فيما ينبغي أن يكون عليه حالها بحال الأمة الموادعة المطيعة وهو تشبيه تمثيلي ، لأنه تشبيه حال بحال ووجه الشبه مركب ، فهي لم تقصد أن تشبهها بالأمة فحسب ، وإنما حالها بحال الأمة ، والنتيجة : " يَكُنْ لكِ عبدًا وَشيكًا" فالجزاء من جنس العمل ولام الملك أو التخصيص جاءت معها كذلك ردا لمعروفها وحسن عشرتها لزوجها .

إنه لن يكون لها كالعبد في الذلة والانكسار وإنما يكون حاله معها كحال العبد مع سيده في الموادعة وحسن السمع والطاعة والخوف عليه ، وهل يتوقع السيد الإيذاء من عبده؟

وهو ليس عبدا فقط ، وإنما عبدا وشيكا ،أي سريعا قريب الإجابة قريبا منك هكذا بصيغة المبالغة.

---

(١) اللسان : وشك

لقد صورت لنا الأم الحكيمة حال الحياة الزوجية الرغدة الهانئة الساكنة السعيدة في حسن طاعة المرأة لزوجها وعدم ادخارها جهدا في إسعاده ، وكذلك حسن معاملة الزوج لزوجته تبعا كرد فعل طبعي وفطري لأدبها ، فمن يزرع العنب يجني العنب ، ومن يزرع الشوك يجني شوكا وحنظلا ، شبهت تلك الحال بحال الأمة مع سيدها والعبد مع مولاته ، فالأمة مطيعة لسيدها خادمة له رهن إشارته تسعى لإرضائه وإشباعه ، حينئذ يحبها سيدها ويعشقها ، وربما حملت منه وصارت أم ولد وتحولت حرة ، وكذلك العبد الهادئ الطباع مع سيده أو مولاته ، حين يكون طائعا سميعا تحمله فوق رأسها ، وهكذا الحياة بين الزوجين حين تكون على هذا الوتر ، تكون حياة آمنة تنتشر فيها السعادة والسكينة ، ويدفئها الحب والمودة والرحمة والعطاء .

ثم بدأت الأم في إتحاف فتاتها بوصاياها العشر الذهبية فقالت :

أي بنية، احملي عنى عشر خصال، تكن لك ذخرًا وذكْرًا."

وهنا تعود للنداء بنفس صيغته السابقة : "أي بنية" وكأنها تلح على أن تنقل لفتاتها بحرا متدفقا من الحب والحنان والحرص والإخلاص على ما ينفعها .

وقد أتبعت هذا النداء بأسلوب إنشائي آخر وهو الأمر في قولها : "احملي عني عشر خصال" والغرض منه النصح والإرشاد ، وقد جاء أسلوب الأمر هنا مشتملا على استعارة تصريحية تبعية في فعل الأمر "احملي" ؛ حيث شبهت فهم ابنتها لوصيتها واستيعابها لها وحرصها على تطبيقها عمليا في حياتها بالحمل الثقيل الذي تتحمله النفس البشرية بمشقة وتعب ، ثم استعارت الحمل للفهم والحفظ والوعي واشتقت منه بهذا المعنى "احملي" بمعنى افهمي واحفظي وعي ، على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

ووراء الاستعارة إشعار بثقل الوصية وأنها حمل ثمين يحتاج قوة لحمله ويتطلب نفسا قوية للمحافظة عليه ، وتعدية الفعل بحرف المجاوزة "عني" أفاد انتقال الخصال من أمها لابنتها ، فقد ورثوها جيلا بعد جيل ، فهي أشبه بالرواية وربما تكون أمامة قد ورثتها عن أمها ، وقد حددتها بعشر خصال مع أنها أكثر ؛ فالمقدمة وحدها تحتوي على أكثر من ثلاث قيم تربوية ، وذلك حتى تتمكن الفتاة من حفظها وتستطيع حملها ، دون أن تتأفف من ثقلها .

ثم جاء جواب الأمر في قولها : " تكن لك ذخرًا وذكْرًا." والذُّخر : يقال : ذخر الشيء : خبّأه واحتفظ به لوقت الحاجة إليه [1]

فمحافظتها على هذه الدرر تكون برعايتها جيدا ، ومن ثم تكون لها نافعة ثمينة تستدعيها عند الحاجة إليها ، واللام في "لك" للتخصيص ، وهي تبرز حرص أمها على مصلحة ابنتها ، وبين " ذخرا وذكرا " جناس ناقص بحرف واحد ، وهو الخاء في مقابل الكاف ، والذال في الأولى مضمومة وفي الثانية مكسورة ، وهذا التناغم الصوتي مع الاختلاف في المعنى بين أن قيمة هذه الوصايا العشر تكون من ناحيتين :

- **الأولى** : أنها تُقوّم عوج الفتاة متى ما وقعت في مشكلة ما .
- **والثانية** : أنها تُذكر بجميل خصالها في حياتها وبعد مماتها .

ثانيا : الوصايا العشر

• الصحبة بالقناعة، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة.

• والتعهد لموقع عينه، والتفقد لموضع أنفه؛ فلا تقع عينُه منكِ على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح.

---

(١) المعجم الوسيط : ذخر

• والكحل أحسن الحسن الموجود، والماء أطيب الطيب المفقود.

• والتعهد لوقت طعامه، والْهُدُوُّ عنه عند منامه؛ فإن حرارةَ الجوعِ مَلْهَبة، وتنغيصَ النوم مغضبة.

• والاحتفاظ ببيته وماله، والإرعاء على نفسه وحِشمه وعياله، وملاك الأمر في المال حسنُ التقدير، وفي العيال والحَشَم حسن التدبير.

بلاغة التعبير عن القيمة التربوية الرابعة والخامسة

((الصحبة بالقناعة والمعاشرة بحسن السمع والطاعة))

تقول أمامة : " الصحبة بالقناعة، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة. "

وقد وردت في بعض الروايات بأسلوب الإنشاء : " اصحبيه وعاشريه " وهكذا سائر الوصايا العشر ، وحينئذ يكون الغرض من الأمر توجيه النصح والإرشاد لفتاتها ، ومجيئه هنا بأسلوب الخبر من حيث اللفظ إلا أنه إنشاء في المعنى ؛ تجنبا لإلقاء الوصية إليها بصيغة الأمر الصريح .

والأسلوب خبري في اللفظ إنشائي في المعنى ، وقد جاء بأسلوب الحقيقة مجردا عن كل وسائل التوكيد يعتمد على الحقيقة الواضحة.

والصحبة بالقناعة تعني أن تكون الزوجة قنوعا مع زوجها تعيش معه سعيدة في السراء والضراء ، غير متطلعة إلى ما في جيبه وما عنده من مال ، وغير متلهفة على لعاعة الدنيا تلهث أمامها كلما عرضت أمام ناظريها كما يلهث الكلب.

إن المرأة التي تكون كذلك تفتقد ثقة زوجها حين يرى بريق الطمع في عينيها ويشعر معها بأنها نفعية محضة ، فهي تبقي على نفسها زوجة له لا لأجل عيونه وإنما من أجل أن تنهب منه ما تستطيع ، فإن فارقها بموت أو طلاق فلن تبكي على اللبن المسكوب ، طالما أنها حظيت بتركة أو ميراث مُرض لجشعها ، وهذه

المرأة أقرب ما تكون إلى عالم الحيوان ، وستبقى تعيسة نكدة طوال حياتها؛ لأنها صارت عبدا للدرهم والدينار.

إن أمامة بدأت مع ابنتها بأغلى قيمة تربوية تجعلها ملكة أو أميرة في نظر زوجها ، وهي القناعة ، فالقناعة كنز لا يفنى ، بل وتجعله معها سخيا منفقا يجمع المال نهارا من خلال كده وتعبه ، ليضعه في حجرها ليلا بكل حب وأريحية وسرور.

وهي ليست قناعة مزيفة أو مصطنعة ، بل أصلية طبيعية كما أفصحت عنها باء المصاحبة ، مدعومة بفعل المصاحبة "اصحبيه" يسبقها ليؤكد على أن القناعة ستكون لها منهج حياة .

والقيمة الخامسة :"المعاشرة بحين السمع والطاعة"

والمعنى: وعاشريه بحسن السمع والطاعة ، ولم تقل بالسمع ، وإنما قالت : بحسن السمع ، فهو سمع لا تنغيص فيه ، وطاعة لا تكدير لصفائها ونقائها ، وباء المصاحبة كذلك أفادت أن تلك الصفة "حسن السمع والطاعة" ستكون جزءا من حياتها مع زوجها .

والمعاشرة : المخالطة والمصاحبة ، وعاشر زوجته : جامعها .[١]

لقد طرقت أمامة كأم حكيمة متمرسة بابا هو من أخطر الأبواب بالنسبة للرجال ، إنه السمع والطاعة ، فإذا فتحته المرأة بهدوء وسكينة عاشت مع حمل وديع متغافل عن زلا تها ، وإن أغلقت هذا الباب وجدت ذئبا ضاريا وأسدا هائج الحفيظة لا يقوى على إسكاته الرجال ، والعجيب أنه يسكن بكلمة طاعة واحدة.

وقدمت السمع على الطاعة ؛ إشارة إلى أن المرأة ينبغي أن تكون لزوجها آذانا مصغية فإذا سمعت أطاعت ، والطاعة هنا ليست طاعة مطلقة ، وقد قيدها الإسلام الحكيم بأنه "لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق" ، وليست الطاعة مطلقة

(١) المعجم الوسيط : عاشر

بحيث تصل إلى درجة الحجر على المرأة في رأيها وطمس رؤيتها وفكرها ، ولذلك قالت : "بحسن السمع والطاعة" فهي طاعة تمتلك المرأة من خلالها ناصية الرجل . إن كانت عاقلة حكيمة . وفي نفس الوقت تعرض رأيها بأريحية يقبلها الزوج ، في إطار حوار بناء بينهما.

وإذا كانت أمامة قد أوصت ابنتها بالمعاشرة بحسن السمع والطاعة ، فإن القرآن الكريم أوصى الرجال بحسن معاشرة النساء ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ النساء: ١٩ وقال نبينا . صلى الله عليه وسلم . "استوصوا بالنساء خيرا"[1]

والمقام مختلف فالقرآن الكريم والسنة المطهرة يؤصلان لقضية عامة الغالب فيها انتصار الرجال وضعف المرأة وانكسارها ، فشدد على الرجال أن يتخلوا عن كبرهم وصلفهم في معاملة النساء ، بينما هنا تركز الأم على حسن معاشرة ابنتها لزوجها ؛ لأنها توصيها هي ليلة زفافها .

ومن المعاشرة بحسن السمع والطاعة أن تجيبه لقضاء وطره منها ولو كانت على ظهر بعير . كما ورد في الحديث الشريف . وأكثر ما يزعج الرجال ويفسد الحياة الزوجية هو امتناع المرأة عن زوجها ، ورفضها رفضا قاطعا بل وصدها له في كثير من الأحيان وقد كان ذلك سببا في حدوث كثير من المشاكل التي أدت إلى استحالة الحياة الزوجية .

(١) صحيح مسلم : ٢ / ١٠٩١ حديث رقم : ١٤٦٨ تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي . دار إحياء التراث العربي – بيروت

لقد طرقت أمامة بابا حساسا للرجل طرقته بأدب جم وعدم تصريح أو تكشف لتلقن النساء درسا بالغا في أسرار تحقيق سعادة الرجل لتستقيم لهن الحياة.

بلاغة التعبير عن القيمة التربوية السادسة والسابعة

((والتعهد لموقع عينه، والتفقد لموضع أنفه؛ فلا تقع عينُه منكِ على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح.))

وهو معطوف على المصاحبة بالقناعة ، خبر في اللفظ إنشاء في المعنى كسابقه ، ولذا ورد في بعض الروايات : تعهدي ... وتفقدي...،والغرض البلاغي للتعبير عن الإنشاء بلفظ الخبر اجتناب إلقاء الأمر الصريح مباشرة ، والدلالة على أن ذلك الأمر ينبغي أن يكون حالا لها وصفة من صفاتها الدائمة وشأنا من شؤونها.

والتعهد : تفعّل وهو من العهد والمعاهدة ، وصيغته تشير إلى المثابرة والمعاناة والتعمل ، ومن ثم الحرص التام على متابعة هذين الموضعين ، ومثله التفقد ، إذ التعهد يقتضي تجدد العهد والتزام النظام ، وتعهده بالرعاية اللازمة : عُني به وألزم نفسه بتفقده والاهتمام به ، والتعهد يقتضي التردد والإصلاح ، والعهد الموثق واليمين ، ويقال : تفقد الشيء : لاحظه وراقبه عن قرب ، والتفقد فيه معنى التدقيق والفحص وتتبع أحوال الشخص.[1]

وبين الكلمتين جناس ناقص بحرفين : "التعهد والتفقد" ولذلك جاءت إحداهما وهي التعهد مع العين ، والأخرى وهي التفقد مع الأنف.

(١) ينظر : اللسان والقاموس المحيط للفيروزآبادى : عهد ، فقد تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

وبالرجوع لأصل المعنى للكلمتين يتبين مناسبة كل منهما لما استعمل معه ، فالتعهد فيه معنى العهد وكثرة التردد على الشيء والإصلاح كما سبق ، وفيه نوع من الميثاق أو الالتزام واليمين ، فكأنها تشير إلى ابنتها بأن موقع عين زوجها ينبغي أن يكون دائما حسنا ، ولذلك قالت : "فلا تقع عينه منك على قبيح" هكذا بصيغة الإنشاء ، فهو نهي الغرض منه النصح والإرشاد .

والموقع هو مفعل بكسر العين اسم مكان لوقوع العين فيجمل بها ألا تقع عينه منها على قبيح ، سواء كان القبح في المظهر أم في المخبر ، وسواء كان قبحا ماديا أم معنويا ، في الكلام أو في الفعال ، ولذلك جاءت بصيغة المبالغة "قبيح" وهو صفة لمحذوف أي على شيء قبيح ، وحذف الموصوف للدلالة على العموم وللمسارعة بذكر الصفة ، وكأن هذا يجب أن يكون منها ميثاقا غليظا وعهدا تأخذه على نفسها في علاقتها بزوجها .

والتفقد يقتضي الملاحظة والمراقبة والتدقيق والتفحص للشيء ، وذلك يعني أن موضع الأنف وهو مكان الشم ينبغي أن يلاحظ دائما من قبل المرأة ، وأن يكون موضع اهتمامها ، " فلا يشم منك إلا أطيب ريح" والغرض من النهي النصح والإرشاد ، ودلالة ابنتها على ما يجعلها أسيرة عند زوجها ، وقد عدت الشم بمن الجارة "ولا يشم منك" ، وكذلك الوقوع :فلا تقع عينه منك" للإشارة إلى أنها ينبغي أن تكون نظيفة في مظهرها ومخبرها ورائحتها ورائحة بيتها ، فأي رائحة كريهة تكون في البيت فالمرأة هي المسئولة عنها ، وأي منظر قبيح فالمنوط بها أن تجمله هي ، وجاء أفعل التفضيل مشتقا من الطيب "إلا أطيب ريح" مضافا إلى الريح ؛ ليدل على أنها ينبغي لها أن تنبثق منها أطيب الروائح ، وهو مشتق من الطيب والطيب رائحته جذابة للنفس مريحة للقلب جالبة للسعادة .

وفي هذه الجملة قصر بطريق النفي والاستثناء ، فالنهي هنا في باب القصر يقوم مقام النفي ؛ حيث نهت ابنتها عن أن يشم زوجها منها أي رائحة إلا الروائح الطيبة ، وهو قصر حقيقي ادعائي للمبالغة في حرصها على أن تفوح منها ومن بيتها دائما أطيب الروائح.

إن أمامة غاصت في أعماق الرجل فعلمت أن أشد ما يزعجه هو عينه وأنفه فحذرت فتاتها من أن تكون سببا في نفور زوجها منها بسبب قبح في المظهر والمخبر ، أو انبعاث روائح كريهة من ذاتها أو من بيتها ، فكلاهما كارثة تغرس في قلب الرجل النفور من زوجته والفتور في علاقته بها ، وقد يصل إلى الفراق والشقاق والبحث عن بديل.

بلاغة التعبير عن القيمة التربوية الثامنة والتاسعة

((والكحل أحسن الحسن الموجود، والماء أطيب الطيب المفقود))

لما حذرتها من موقع عينه وموضع أنفه دلتها على عوامل الجمال وأسباب طيب الرائحة ، ومعلوم أن الجمال نسبي يختلف من شخص لآخر ومع ذلك لا يختلف أحد في أن الكحل أحسن الحسن . كما قالت أمامة . فهو جمال عيني كل أنثى ، وهو شيء ميسور وسهل وبسيط ولا كلفة فيه ولا مشقة ولا تكلف ، وهذا كله مفهوم من ذكر الصفة للحسن وهي "الموجود" أي المتاح أمامك ، لذا دلتها على هذا الحسن الساحر وجعلته أحسن الحسن ، فإذا كان الحسن له مظاهر متعددة وأسباب شتى ، فإن أعظمها أثرا وأكثرها تحقيقا له هو الكحل .

ثم دلتها على سبب الرائحة الطيبة وهو الماء ، فإن شق عليها الطيب فعليها بالماء بالاغتسال مثلا ، فإنه أطيب الطيب المفقود .

إن أمامة لا تريد أن تحمل فتاتها فوق طاقتها ، ولا تطالبها بما لا تحتمله ، ولا تشترط عليها لتكون ساحرة لزوجها جاذبة لاهتمامه أن تضع على وجهها طبقات متعددة من أساليب التجميل وأدواته ، ولا أن تعطر جسدها ونفسها بأرقى وأفخم أنواع الطيب ، ولا شك أن هذا سيكون متاحا لها فهي زوجة ملك ، ومع ذلك لا تطلب منها ذلك ثقة في جمالها أولا ، ثم حتى لا تشق عليها ولا تدع لها عذرا في ترك التجمل والتعطر.

وكأنها لا تخاطب ابنتها "أم إياس" وحدها ؛ وإنما توجه وصيتها لكل فتاة مقبلة على الزواج ، ولكل زوجة ، حتى تصطبغ وصيتها بالطابع الإنساني العام .

بلاغة التعبير عن القيمة التربوية العاشرة والحادية عشرة

((والتعهد لوقت طعامه، والْهُدُوُّ عنه عند منامه؛ فإن حرارةَ الجوعِ مَلْهَبة، وتنغيصَ النوم مبغضة))

وبعد أن انتهت أمامة من الحديث عن حاجات الرجل النفسية وهي تتمثل في حبه للجمال والعطر ، فهما من حاجات النفس ، انتقلت إلى الحديث عن حاجات الجسد وهي الطعام والنوم ، وافتقاد الرجل إحداهما وهي الطعام تجعله أسدا هصورا لا يدري ما يفعل ، وافتقاده للأخرى وهي النوم يعكر مزاجه ويفقده صوابه.، ولذلك أصابت أمامة في الانتقال إليهما.

وقد اختارت لفظ التعهد هنا كذلك مع حاجة البطن وهي الطعام حتى تكون المرأة حريصة على تجهيز طعامها قبيل أن تُثار في الرجل نوازع الجوع التي تذهب بلبه وعقله، وأن يكون هذا الأمر منها كالعهدة ، وهي متعهدة به ، مسئولة عن إشباعه ، لا أن تكون مشغولة لاهية غافلة عن حقوق زوجها وأبسطها الطعام والشراب.

فالمرأة العاقلة لطول عشرتها لزوجها تعرف وقت طعامه وأوان جوعه ، فتعد العدة لذلك دون كسل أو تهاون أو خمول.

وقد عللت هذا التعهد بجملة " فإن حرارة الجوع ملهبة" والحرارة من لوازم النار فقد شبهت الجوع بالنار وحذفت المشبه به ودلت عليه بلازم من لوازمه وهو الحرارة على سبيل الاستعارة المكنية .

ووراء هذا البيان العالي إشارة إلى أن غريزة الجوع عند الرجل تشبه النار التي تحرق وتهلك ، وأول من يحترق بتلك النار هي من تسببت في إشعالها ، بسبب انعدام إحساسها بالمسئولية وبطئها وتراخيها في الاهتمام بشئون زوجها.

وقد رشحت الاستعارة بكلمة "ملهبة" وهي مفعلة من اللهب ، واللهب يكون للنار المشتعلة ، فحرارة الجوع تذكي جذوة النار في نفس الرجل ومن ثم يحدث ما لا يحمد عقباه.

وإذا كان الجوع يشبه النار التي تحتاج من الزوجة للتعهد حتى لا تشتعل ، فإن النوم يحتاج إلى الهدوء "والهدوء عند منامه" وروي الهدوّ بإسقاط الهمزة والتعويض عنها بالواو ، للمبالغة في شدة الهدوء والسكون ، والمنام : مفعل ، اسم زمان أو مكان لوقت النوم أو مكانه ، وكلاهما مراد هنا ؛ حيث يراد منها أن تكون هادئة وقت نومه وفي مكان نومه.

والتعبير بالمصدر : الهدوء ؛ يشير إلى ضرورة أن تجعل المنزل كله قطعة من الهدوء والاستقرار ، فقد ينكسر الهدوء بسبب شغب الأطفال والأم هي المسئولة.

وقد عللت أمامة ذلك بقولها "وتنغيص النوم مغضبة" والمغضبة : مفعلة من الغضب ، وهي تشير إلى المبالغة في شدة غضبه حين ينغص نومه بسبب حماقة الزوجة مثلا ، أي أن لها يدا في ذلك بشكل أو بآخر ، وقد روي "مبغضة" من البغضاء وهي الكراهية ، وذلك يعني أن إثارة حفيظة الرجل بعدم الهدوء عند منامه قد تكون ـ إذا تكررت ـ سببا في بغضه لزوجته وكراهيته عشرتها.

والمصدر الذي أتى هنا على صيغة التفعيل " تنغيص" يحكي بصيغته مرارة الألم وشدة تعكير المزاج الذي نزل بالزوج بسبب إزعاج زوجته وعدم هدوئها .

لقد أحاطت أمامة هنا بالحاجات النفسية والجسدية للرجل حتى تضمن لفتاتها حياة زوجية آمنة مطمئنة .

بلاغة التعبير عن القيمة التربوية الثانية عشرة والثالثة عشرة

((والاحتفاظ ببيته وماله، والإرعاء على نفسه وحِشمه وعياله، وملاك الأمر في المال حسنُ التقدير، وفي العيال والحَشَم حسن التدبير.))

وهنا تنتقا أمامة إلى شئون البيت الداخلية بعد أن انتهت من الحديث عن حاجات الرجل الشخصية ، لتبين لفتاتها حاجة زوجها الاجتماعية إلى البيت وبناء الأسرة ، والأسرة قوامها الأبناء والعيال والحشم والمال ، ولذلك قالت : "والاحتفاظ ببيته وماله" ،والاحتفاظ : افتعال من الحفظ وهو يشير بصيغته إلى أن المرأة ينبغي لها أن تبذل قصارى جهدها في الحفاظ على بيت زوجها وماله .

والاحتفاظ غير الحفاظ ، فالحفاظ ، فعال وهو يكون بالذود عن الشيء والدفاع وإبقائه سليما صحيحا ، بينما الاحتفاظ يعني أنك تدخره لنفسك وتجعله خاصتك ، فهي تطلب منها أن تتعامل مع بيت زوجها على أنه ملك لها ومن ثم تحتفظ به احتفاظا يجعلها موضع ثقته .

والباء للملاصقة ، وهي تشير إلى جعل البيت والمال جزءا منها ملاصقا لها وهي ملازمة لكليهما ، وإنما جمعت البيت والمال في قرن واحد لأن بهما قوام الأسرة فهما ركناها ، فالبيت مقر إقامتها ، والمال عصب حياتها ، وقدمت البيت على المال ؛ لأن البيت هو جامع شتات الأسرة .

ثم عللت ذلك بقولها : "فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير" مؤكدة الجملة بإن واسمية الجملة ؛ لأنها جملة تعليلية تقع من العقل موقعا لطيفا وتعمل على إقناعه وروي "وملاك الأمر في المال حسن التقدير" وملاك الأمر : قوامه الذي يملك به[1] وهذا التعبير سد مسد التأكيد في الرواية السابقة ، من خلال مدلوله اللغوي ، وهو

(١) مختار القاموس للطاهر أحمد الزواوي : م ل ك إصدار الدار العربية للكتاب بيروت

يشير إلى أن أساس الإبقاء على ملك المال إنما يكون بحسن الاقتصاد في النفقة وعدم التبذير ، وهو درس تلقنه الأم لفتاتها .

وخصت المال هنا مع التعليل ؛ لأنه عصب الحياة ولأن الحفاظ عليه والاحتفاظ به احتفاظ بما سواه ، كالبيت والأولاد ، وقد جاء خبر إن في قولها "حسن التقدير" والتقدير فيه معنى الوزن وحساب القيمة والتقويم والتخمين .. والتقدير : التفضيل والاعتراف بالفضل ، والتقدير : التروية والتفكير في تسوية أمر .. وفي اللسان : قدر الإله كذا تقديرا وإذا وافق الشيء الشيء قلت : جاء قدره .[1] ، وهو يبين أن حفظ المال فيه تقدير لسعي الرجل واعتراف بفضله وشكر لإحسانه ، وهو ليس أي تقدير وإنما هو حسن التقدير هكذا بإضافة المصدر إليه.

وقد عطفت على "الاحتفاظ ببيته وماله" ، قولها :"والإرعاء على نفسه وحشمه وعياله"

والإرعاء : مصدر أرعى ، وإرعاء الماشية: جعلها ترعى وتسرح في الكلأ وتأكل العشب ، وإرعاء السمع : الاستماع بانتباه، والحشم : حشم الرجل : خاصته الذين يغضبون لغضبه ولما يصيبه من مكروه ، ويقال : فلان كثير الخدم والحشم : من ذوي الثراء والمكانة ، ورجل حشيم : شديد الحياء خجول ، والحشيم : الجار والضيف ، والحشمة : حياء ورزانة ووقار وأدب وتواضع ، والحشمة : المسلك الوسط المحمود ، وحشم الرجل : خدمه الذين يقومون على خدمته ، خاصته الذين يتبعونه في السراء والضراء من أهل أو جيرة أو أصدقاء . [2]

فالإرعاء يحمل معاني الاهتمام والرعاية والحفظ والتعهد ، والإرعاء على الحشم والعيال يعني العناية بهم وتعهدهم في السراء والضراء ، وقد جمعت الحشم

(١) اللسان : والمعجم الوجيز : قدر

(٢) ينظر : اللسان والمعجم الوجيز : رعى ، وحشم

مع العيال في الإرعاء ؛ لأن كليهما يحتاج عناية ورعاية ، ورعايتهما والإرعاء عليهما مما يسعد الزوج ويجعله أكثر حبا لزوجه وحرصا على رضاها .

وقد قدمت أمامة إرعاء الزوج على الحشم والعيال ؛ ووراء ذلك لفتة تربوية عالية في أسس الحياة الزوجية السعيدة ؛ وذلك أن رعاية الزوج زوجها مقدمة على ما سواه من أهل وحشم وعيال ، وفي الإرعاء معنى الإصغاء ؛ فإرعاء السمع يعني الإصغاء والاستماع إليه بانتباه واهتمام ، وهذا مما يحمده الزوج لزوجته مما يشعره باهتمامها بكلامه وتعلقها به ، وهذا إرعاء معنوي ، أما الإرعاء المادي فيعني اهتمام الزوجة بواجبات زوجها وحاجاته الشخصية من مأكل وملبس ومشرب ..إلخ ، ولذا قدمت إرعاء الزوج على إرعاء الحشم والعيال فإن اهتمام المرأة بزوجها يشفع لها ما عداه ، واهتمامها بما عداه لا يشفع لها تقصيرها معه.

وقد عللت ذلك بقولها "والإرعاء على العيال والحشم حسن التدبير" ،

والتدبير : حصافة الرأي وسداده والفطنة والحنكة والتنظيم الحسن .

والتدبير المنزلي : حسن القيام على شئون البيت ، وامرأة لها قدرة كبيرة على تدبير شئون البيت ؛ على تسييره وترتيبه والعناية به .. والتدبير نصف المعيشة .. والتدبير : النظر في عاقبة الأمر كالتدبير .

ودبر الأمر وتدبره : نظر في عاقبته .[1]

فالتدبير يحمل معاني التنظيم والتوقير وحسن القيام على شئون البيت ، ووراءه انعكاس لحنكتها وحكمتها وحصافة رأيها ، لأنها تستجلب بذلك رضا زوجها وتدبير بيتها .

ولفظ الحشم تلمح فيه معنى الاحتشام والحياء والوقار والأدب وكأنها تلمح إلى أن خاصة زوجها مظنة الأدب والحياء ، ومن ثم يدل ذلك على ما يتمتع به هذا

(١) اللسان والمعجم الوجيز : دبر

الزوج من أدب عال وحياء جم ورزانة ووقار فهي تمهد بذلك لثقة الفتاة في زوجها .

وصاحب الحشم رجل له هيبة وله مكانة وهي تعلم أنها ستكون زوجة ملك فخاطبت فتاتها خطاب الملوك والأمراء ، ومن معاني الحشم . كما سبق . الجار والضيف ، فكأن أمامة تعلّم فتاتها أن تكون حريصة على الإحسان إلى جيرانها ورعايتهم ، وخدمة ضيوف زوجها وإكرامهم ، ولفظ "على" يوحي بالإحاطة بهم والتظليل عليهم بالحب والعطاء والمودة والقيام بواجبهم وحقهم .

والعيال : الأولاد ، والعيل هو من يعوله غيره ، وإنما اختارت هذا اللفظ دون الأولاد او الأبناء مثلا ؛ للإشارة إلى حاجتهم إلى من يعولهم ويهذب أمرهم ويقوم على شئونهم ويرعاهم رعاية العائل ، وأضافت العيال إليه لتشمل عياله منها أو من غيرها .

وبين "التقدير والتدبير" جناس ناقص بحرفين أكسب الوصية نغما موسيقيا خلابا تشيع من خلاله معاني الحب والاحترام وتحمل المسئولية ، وكلاهما مؤشر لحياة زوجية آمنة مستقرة.

ثالثا : ختام الوصية

• ولا تفشي له سرًّا، ولا تعصي له أمرًا؛ فإنك إن أفشيتِ سره لم تأمني غدره، وإن عصيت أمره أَوْغَرْتِ صدره.

ثم اتقي مع ذلك الفرح إن كان تَرِحًا ، والاكتئاب عنده إن كان فرحًا؛ فإن الخصلة الأولي من التَقصير، والثانية مِن التكدير.

وكوني أشدَّ ما تكونين له إعظامًا؛ يكن أشدَّ ما يكون لك إكرامًا.

وأشد ما تكونين له موافقة؛ يكن أطولَ ما تكونين له مرافقة.

واعلمي أنك لا تَصِلِين إلى ما تُحبين حتى تُؤْثري رضاه على رضاك، وهواه على هواك، فيما أحببتِ وكرهت، والله يَخير لك ".

بلاغة التعبير عن القيمة التربوية الرابعة عشرة والخامسة عشرة

((ولا تفشي له سرًّا، ولا تعصي له أمرًا؛ فإنك إن أفشيتِ سره لم تأمني غدره، وإن عصيت أمره أوْغَرْتِ صدره.))

وإفشاء السر : إذاعته بين الناس وانتشاره وظهوره [1] وقد انتقلت أمامة هنا إلى أسلوب الإنشاء وهو معطوف على ما سبق ؛ لأن السابق خبر في اللفظ إنشاء في المعنى ، وسر الوصل هو التوسط بين الكمالين .

والإنشاء هنا نهي ، الغرض منه النصح والإرشاد ، فقد أرادت بقولها : " ولا تفشي له سرا " أن تكون ابنتها كاتمة لأسرار زوجها وأسرار حياتها الزوجية ؛ لأن هذا يتعلق باستقرار حياتها وهو دليل أمانتها ورجاحة عقلها وحكمتها وصبرها على حفظ أسرار حياتهما.

وتنكير "سرا" يدل على القليل والكثير ، فهو يفيد العموم أي أيا كان هذا السر جل أو قل عظم أو صغر.

ولما كان إفشاء المرأة سر زوجها مظنة هدم بيت الزوجية وعلامة على خيانتها ، عللت نهيها بقولها :"فإنك إن أفشيت سره لم تأمني غدره" ،لتبين لها عاقبة إفشاء السر وهي تتمثل في عدم أمنها غدر زوجها بها .

---

(١) اللسان : فشا

والغدر : ضد الوفاء بالعهد ، وغدر إذا نقض العهد.[1] ومعنى ذلك أن المرأة بكشفها سر زوجها تجعله ينقض عهد أمانها ، فتصير كأنها لا عهد لها ويترتب على ذلك انفصال العروة بينهما وتفكك الأسرة وانهيارها حيث انعدمت ثقة زوجها بها ، وكأن أمامة حين أوصت فتاتها سابقا بقولها :"الإرعاء على نفسه وحشمه وعياله" ، دلتها على ما يجلب ثقة الرجل في زوجته ، وهنا حين قالت : "فإنك إن أفشيت سره لم تأمني غدره" دلتها على ما يحطم ثقة الزوج في زوجته.

وقد أكدت خبرها بإن واسمية الجملة ؛ لتنزل تلك الجملة التعليلية من قلبها وعقلها منزلة الإقناع والاستقرار وحتى تؤصل هذا المعنى في نفسها.

وجاءت بإن الشرطية دون إذا أو لو مثلا ، وهي تفيد الشك في تحقق الفعل وقلته وندرته ؛ لتشير بذلك إلى أن إفشاء المرأة سر زوجها شيء قبيح على خلاف العادة والأصل فيه أن يكون نادر الوقوع مستبعدا.

ولفظ الإفشاء يوحي بمادته وصوته بالانتشار والذيوع ، وهو ما يناقض مقتضيات الأمانة الزوجية ، ولذا جاء جواب الشرط : "لم تأمني غدره" ،منفيا بلم الجازمة الداخلة على فعل الأمن ليدل على بداية حل عقدة الحياة الزوجية وانفصامها شيئا فشيئا.

وقد أضافت السر والغدر إلى ضمير الزوج :"سره وغدره" ؛ لتفيد أن الجزاء من جنس العمل ، وبينهما جناس ناقص بحرفين وهو يوحي بالخفاء في كل منهما وارتباطهما ارتباطا وثيقا.

ثم عطفت النهي الآخر وهو قولها :" ولا تعصي له أمرا " على سابقه ؛ لتبين أنها يجب أن تكون مطيعة لزوجها ، وإذا كان التنكير يفيد العموم في "أمرا" ، كما أفاده في "سرا" ، أي أمرا مطلقا فإن هذا العموم المراد منه المبالغة في مطلق طاعة

(١) اللسان : غدر

الزوجة زوجها ، وإلا فإنه مقيد في ديننا بطاعة الله ورسوله ، انطلاقا من القاعدة الشرعية " لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق " ، وهو عموم تقيده القرائن العقلية في ذهن أم إياس ، وقد اعتمدت عليها أمامة فحكمة فتاتها ورجاحة عقلها تؤكد أنها لن تطيعه فيما هو ضار ما أمكنها ذلك ، وإنما أرادت أمها أن تؤكد لها على الطاعة المطلقة ، كما قالت في صدر وصيتها " وعاشريه بحسن السمع والطاعة ".

ومجيء لام الاختصاص في الموضعين "له سرا ، له أمرا: ، يدل على اختصاص زوجها بها واختصاصها به ، فكل منهما خاص بالآخر ، وأن براعة المرأة في أن تشعر زوجها بهذا المعنى.

وقد عللت أمامة النهي عن عصيان أمره بقولها : "وإن عصيت أمره أوغرت صدره" ، والوغر والإيغار من الوغر وهي شدة توقد الحر ، والوغر احتراق الغيظ وتوقده والضغن والعداوة ، وأوغرت صدره على فلان أي أحميته من الغيظ.(١)

وهي تشير بذلك إلى ما يكون في صدر الرجل من ثورة نارية وغيظ متوقد حين تعصاه زوجته في أمر ما .

و"إن" هنا كذلك تشير إلى أن الأصل في المرأة أن تكون مطيعة لزوجها والعصيان أمر نادر ، بل ينبغي أن يكون معدوما ، وبين "أمره وصدره" جناس ناقص بحرفين وهو يشير إلى التمازج والاختلاط بين الخصائص النفسية للرجل ، فعصيان أمره سبب في توقد حرارة صدره واحتراق نفسه.

إن أمامة هنا تغوص في أعماق نفوس الرجال ، فتظهر لكريمتها ما يحبه الرجل وما يأنف منه ويبغضه، وانظر إلى حسن التناسب في كل تعليل ؛ فمع إفشاء السر توقع الغدر ، ومع عصيان الأمر إيغار الصدر وكل منهما مناسب لصاحبه ،

(١) اللسان : وغر

فإفشاء أسرار الزوج خيانة من الزوجة تنقض عرى الحياة الزوجية وتجعل المرأة في نظر زوجها خائنة غير مأمونة الجانب ومن ثم تستوجب العقاب والغدر.

وعصيان أمر الزوج تمرد على قيم الحياة الزوجية وأصولها واستخفاف بقوامة الرجل واستهانة بقدره ، ويترتب عليه تغير نفسي في مزاج الرجل وإحساس بالنقص والضعف الذي يتنافى مع فطرته ومن ثم يحترق صدره كمدا وغيظا ، وربما ضغنا على حليلته الجامحة الشرود ، التي هزت كبرياءه وهدمت قوامته.

بلاغة التعبير عن القيمة التربوية السادسة عشرة والسابعة عشرة

((ثم اتقي مع ذلك الفرح إن كان تَرِحاً ، والاكتئاب عنده إن كان فرحاً؛ فإن الخصلة الأولي من التَقصير، والثانية مِن التكدير.))

وهنا تنتقل أمامة إلى الجوانب الإنسانية في العشرة الزوجية ، ومنها : مراعاة كلا الزوجين مشاعر الآخر فرحا وترحا ، ورضا وغضبا ، وقد عطفت كلامها هنا على قولها السابق "ولا تفشي له سرا" وكلاهما إنشاء ، السابق نهي ، وهذا أمر ، فقد راعت في توجيه وصيتها لفتاتها أن تنوع بين الأمر والنهي لتستوعب المأمور والمحظور.

والعطف بـ"ثم" يدل على الترتيب الرتبي ، وكأنها تقول لها إذا فعلت ما سبق كله وجب بعد ذلك أو ترتب على ذلك أن تتقي ...إلخ ؛ ولذلك جاءت بحرف المعية "مع ذلك" داخلا على اسم الإشارة الذي للبعيد ، وهو يشير إلى ما سبق من وصايا ، وبعدها هنا بعد في المنزلة والقيمة التربوية ، وإشارة إلى أن تلك الوصايا بعيدة المنال تحتاج توطين النفس وترويضها.

وما أجمل أن تربط أمامة بين أجزاء وصيتها حتى تصير متماسكة قوية وكأنها قطعة واحدة لا تتجزأ ، وقد أفصح عن ذلك حرف المعية "مع ذلك" ،وحتى لا تنسى الفتاة ما سبق وحتى لا تتهاون بشيء منه ، وكأنها تقول لها : احذري أن ينسيك آخر الكلام أوله.

والغرض من الأمر النصح والإرشاد عموما في الوصية ، وإن كنت أراه هنا في هذا المقام يكاد ينصرف إلى حقيقة دلالته وهي الوجوب والإلزام، حيث تتعلق الوصية هنا بغضب الرجل ورضاه.

والاتقاء من التقوى ومادته وقى وقاء ووقاية أي صانه ، والتوقية : الكلاءة والحفظ ، واتقيت الشيء حذرته والاسم التقوى .[١] فالاسم بمادته يحمل تحذيرا شديدا للفتاة أن تفعل ذلك.

وقد جاء مفعول الاتقاء وهو الفرح وهو المحذر منه مقيدا بالشرط بعده "إن كان ترحا"

قال صاحب الأساس: "وأترحه وترّحه : أحزنه ، وعيش مترح شديد ، ورجل ترح : قليل الخير يترح سائله.[٢]

والترح نقيض الفرح ... وهو الهلاك والانقطاع والترح الفقر.[٣]

وأنسب تلك المعاني السابقة هو أنه نقيض الفرح بدليل ذكر الفرح قبله وبعده ، فالمراد به الحزن الشديد ، وقد جاء على صيغة المبالغة "ترح" على وزن " فعل " بكسر العين ؛ لتشير إلى شدة حزنه وهو ما يؤكد خطأ الزوجة حين تظهر الفرح وزوجها بتلك الحال .

وقد آثرت " إن " الشرطية ، دون " إذا " ؛ لتدل على أن الأصل والغالب في حياة الرجل إن يكون فرحا سعيدا ، وأن الحزن والألم طارئ عليه نادر الحدوث ، أو هكذا ينبغي أن تكون حاله ، ولا يكون ذلك إلا من خلال إسعاد زوجته إياه ، وكأنها تهمس في أذنها : لا ينبغي للحزن أن يعرف لزوجك طريقا.

ثم أتبعت أمامة تعليل هذا الأمر بقولها : "فإن الخصلة الأولى من التقصير" ، والخصلة الأولى هي الفرح أمامه إن كان ترحا ، وقد أكدت على أن ذلك من

(١) مختار القاموس : و ق ي

(٢) أساس البلاغة : ترح

(٣) اللسان : ترح

التقصير بـ"إن" واسمية الجملة ؛ ليقع ذلك من نفسها موقعا حسنا ، وحتى تحذره الفتاة بشدة وتتحاشاه.

والتقصير يعني التقصير في حق الزوج ، وقد جعلتها من التقصير هكذا بدخول من التبعيضية ؛ لتدل على أنها جزء من مظاهر التقصير ، فقد يكون للتقصير في حياة الزوج مظاهر متعددة هذه الخصلة إحداها.

ووجه كونها من التقصير عدم مراعاة مشاعر الزوج وعدم التوافق والانسجام النفسي في هذا المقام بينهما .

ولك أن تنظر إلى الطباق والتضاد بين الفرح وترحا ، الأول جاء بصيغة المصدر معرفا بأل ، والثاني جاء بصيغة المبالغة ، فعل ، منكرا ، وهو يدل على طلبها عدم إظهار أي مظهر من مظاهر الفرح والأريحية والسرور قل أو كثر إن كان زوجها ترحا ، فلم تقل مثلا : اتقي أن تكوني فرحة إن كان ترحا ، إذ ليس المقصود نفي شدة الفرح وإنما أقله وأدناه.

ثم جاءت المقابلة في التحذير الثاني : "والاكتئاب عنده إن كان فرحا" وهي في مقابلة الجملة السابقة وهي عكس معناها ، إذ تحذرها هنا من الاكتئاب عند زوجها إن كان فرحا.

والاكتئاب والكآبة : الغم وسوء الحال [1] ؛ فبعض النساء إنما يحلو لها أن تخرج ما عندها من غم إذا كان زوجها فرحا فتكدر عليه صفو الحياة ، وتتحول سعادته نكدا ، وفرحه غما وهما .

والعنديّة تقتضي طول المدة ، وذلك أن المرأة إذا اغتمت يطول غمها وحزنها وتحول فرح زوجها غما وهما.

(١) مختار القاموس : ك أ ب

وصيغة المبالغة "فرحا" تشير إلى المبالغة في سعادته وفرحه ، وقد عللت الخصلة الثانية بقولها : "والثانية من التكدير" ؛ لأنها حين تكتئب وزوجها فرح تكدر عليه صفو الحياة ، وبين التقصير والتكدير جناس ناقص بحرفين ، وهو يشعر بالإساءة في كلتا الحالتين ، وكذلك بين ترحا وفرحا جناس ناقص بحرف واحد ؛ وهو يبين تغير مزاج الرجل ، وأن المرأة ينبغي لها أن تساير طبعه ومزاجه وتتأقلم مشاعرها مع مشاعره .

وبين الجملتين مقابلة ، حيث قابلت : " الفرح بالاكتئاب " و "ترحا بـ فرحا " " والخصلة الأولى بالخصلة الثانية " و " التقصير بالتكدير ".

والفرح يقابله الحزن ، والحزن يؤدي إلى الاكتئاب ، والاكتئاب : الغم وسوء الحال ، والاكتئاب مرض نفسي خطير يحذر منه الأطباء النفسيون ، وهو مرض يلازم المريض مدة من الزمن حتى يتداوى منه ، ومعنى ذلك أن أمامة هنا لا تقصد حزنا عارضا أمام فرح زوجها ، وإنما تعني كذلك الحزن الدائم والغم الذي لا يفارق بعض النساء مما يجعل الرجل يعيش في جحيم أبدي أو فراق محتوم.

والتقصير : تدن فيما يجب فعله ونزول عن الحد الأدنى ، والتكدير : تجاوز وتعد فيما لا يجب فعله أو فيما لا يجوز الوصول إليه ، وكلاهما مغالاة ، الأول مغالاة في السلبية ، والآخر مغالاة في التعاسة والنكد ، وكلاهما مرفوض ، إذ الحياة الزوجية تحتاج الوسطية وهي الحد الأدنى لديمومتها ، أو المغالاة الإيجابية في الحب والعطاء ...إلخ.

وتبدو القيمة التربوية هنا في حرص أمامة على تحقيق التمازج العاطفي بين ابنتها وبين زوجها ، والمشاركة الوجدانية فرحا وترحا ، وهذه المشاركة تشعر الرجل بأنه ليس وحيدا ، وأن معه من يحزن بحزنه ويفرح بفرحه ، والمشاركة فيها نوع

من اقتسام الأفراح والأتراح ، ومن ثم تخفيف العبء عن كاهله المثقل بالهموم والأحزان.

وعلى النقيض من ذلك أن تفرح المرأة إن كان ترحا ، أو تكتئب إن كان فرحا ، عندها يشعر الرجل بالمرارة والغصة في حلقه ، أو قل بالاستهانة واللامبالاة ، ومن ثم الانفصال العاطفي بينهما وعدم التقدير ، ويترتب على ذلك انعدام الثقة ، بل إنه قد يشعر منها بالشماتة المؤذنة بالعداوة والكراهية والبغضاء حين تتحول فرحته إلى حزن وغم في مواقف متعددة ، ومن ثم تنتقض عرى الحياة الزوجية شيئا فشيئا ، وإن بدت متماسكة من حيث الظاهر والعقود الشرعية ، إلا أنها من الناحية المعنوية والعاطفية تكون أشبه بحياة الأعداء.

بلاغة التعبير عن القيمة التربوية الثامنة عشرة والتاسعة عشرة

((وكوني أشدَّ ما تكونين له إعظاماً؛ يكن أشدَّ ما يكون لك إكراماً.وأشد ما تكونين له موافقة؛ يكن أطولَ ما تكونين له مرافقة.))

وقد انتقلت أمامة هنا إلى إذكاء جذوة التعظيم عند الرجل ، وذلك أن الرجل بطبيعته يحب من يقدره لا سيما زوجته ، وأوجب ما يكون ذلك أمام الآخرين ؛ حيث يشعر حينئذ بمقومات الرجولة والقوامة بين الناس ، وقد لمست أمامة هذا الجانب في وصيتها لفتاتها قائلة : " وكوني أشد ما تكونين له إعظاما يكن أشد ما يكون لك إكراما " ، وهي جملة إنشائية بدأت بفعل الأمر " كوني " ، معطوفا على قولها : "واتقي" ، والوصل بينهما للتوسط بين الكمالين ؛ حيث اتفقا في الإنشائية لفظا ومعنى ، والغرض من الأمر النصح والإرشاد،

وفعل الكون الأمري يقتضي تغيرا وتحولا ملحوظا في السلوك مع زوجها ، وقد جاء خبره أفعل تفضيل " أشد " ؛لتبرز درجة إعظامها له ، وهي أنها تفوق من عداه من البشر الذين يكونون معها ، ولذلك جاءت بـ ما المصدرية ، ويجوز أن

تكون موصولة ، وفي كل الحالات هي عامة مطلقة المقصود منها المبالغة في تعظيم وتقدير زوجها ، ولذلك دخلت لام الاختصاص على ضميره "له" ؛ للإشارة إلى أن هذا التقدير خاص به لا يتجاوزه إلى غيره من الناس .

ثم جاء التمييز "إعظاما" أو خبر "تكونين" ، ليبين ويميز ما تخصه به في أعلى الدرجات ، وتنزله به في أعلى المقامات ، وهو الإعظام والتقدير والإكرام.

ثم جاء جواب الأمر وهو مضارع من فعل الكون مجزوم لوقوعه جوابا للأمر "كوني" وهو قولها : "يكن أشد ما يكون لك إكراما "، وجملة الجواب تبين أن الجزاء من جنس العمل ؛ فقد ترتب على إعظامها زوجها إكرامه لها أشد ما يكون الإكرام ، وهذه قاعدة عامة ولكل قاعدة شواذ والشاذ لا يقاس عليه.

وقد جاء الجواب على نفس النمط الذي ورد عليه الأمر حيث تلا فعل الكون المجزوم أفعل التفضيل " أشد " وجاء مفعوله "ما" الموصولة أو المصدرية أو أنها نكرة بمعنى شيء ، أي أشد شيء لك إكراما ، وعمومها يوضح مقابلة الرجل الحسنة بالحسنة ، ودخلت لام الاختصاص كذلك على كاف خطاب فتاتها "لك" ؛ لتشير إلى أن الرجل حينئذ سيجعل زوجته في مكانة خاصة لا يشاركها فيها غيرها ، وجاء تمييز الكون أو خبره "إكراما" ؛ ليبين أن الجزاء من جنس العمل .

ولاحظ أن الإعظام مناسب للرجل ، والإكرام مناسب لطبيعة المرأة ، فما أكرمهن إلا كريم .

ثم قالت : " وأشد ما تكونين له موافقة ، يكن أطول ما تكونين له مرافقة" ، وهي جملة داخلة في حيز الأمر "كوني" ، وقد جاءت كذلك بأفعل التفضيل "أشد" ، مع التمييز "موافقة" ؛ لتبين ضرورة توافق الزوجة مع زوجها في معظم الأحوال وهذا لا يعني امّحاء شخصيتها أو انعدام رأيها أو الحجر عليها ، وإنما يعني عدم التصادم وألا تكون دائمة الاعتراض عليه والمخالفة له ، حتى يصير ذلك ديدنا لها

وعادة لا تفارقها ، ومن ثم يتوقع منها المخالفة والاعتراض في كل صغيرة وكبيرة وهذا ما يدعوه لفراقها ، بخلاف ما إذا كانت أشد موافقة له فإن النتيجة الطبيعية أنه " يكن أطول ما تكونين له مرافقة " ، فجاءت بأفعل التفضيل "أطول" مع التمييز "مرافقة" ؛ لتبين أن موافقتها لزوجها سبب في طول مكثها معه مكثا أبديا ومرافقة طويلة لا تنقطع ، حيث يشعر معها بالأريحية والسعادة والألفة ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : " الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف "[1] ، إذا كان هذا فيما بين الناس ، فما بالك فيما بين الزوجين ،حيث تستدام الحياة الزوجية ويطول أمدها بلا تفكير في الفراق ، إذا كانت الزوجة طائعة لزوجها موافقة له في حياته وحياتها ، سامعة راضية قانعة .

وبين "موافقة" و" مرافقة" جناس ناقص بحرف واحد وهو الواو مع الراء ؛ وهو يفيد بأن المرافقة الطويلة إنما تأتي من الموافقة الشديدة ، وعلى النقيض من ذلك فإن المخالفة المستمرة تؤدي إلى فراق أبدي واهتزاز في كيان الأسرة .

إن أمامة هنا تسوق كلامها بالحقيقة المجردة دون تجوز أو كناية ، ومع ذلك تلمس أدق الأمور الشخصية التي تؤرق الرجل أو تجعله سعيدا ، فباب الفراق بين الزوجين إنما يكون باستهانة الزوجة بزوجها وعدم تعظيمه أو تقديره ؛ ومن ثم تنعدم عنده كرامتها ، وتهون في عينه حرمتها ، وتفتح بذلك باب الخيانة على مصراعيه ، وتكون كذلك بكثرة اختلافها معه ومعارضتها إياه ، واعتراضها عليه فيما جل أو صغر ، ومن ثم تفتح بذلك باب الطلاق والفراق على مصراعيه ، علمت أمامة ذلك فحثت فتاتها على إعظام زوجها وموافقته أشد ما يكون الإعظام

(١) صحيح البخاري : ٤ / ١٣٣ حديث رقم : ٣٣٣٦ تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر . دار طوق النجاة . الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ

والموافقة ، حتى تضمن بذلك أن تكون ملكة على عرش حياة زوجية أبدية يحيطها الأمن والأمان.

بلاغة التعبير عن القيمة التربوية العشرين والأخيرة

((واعلمي أنك لا تَصِلِين إلى ما تُحبين حتى تُؤْثري رضاه على رضاك، وهواه على هواك، فيما أحببتِ وكرهت، والله يَخير لك))

ثم تأتي أمامة إلى ختام وصيتها بهذه الوصية الأخيرة وهي الوصية العشرون ، وهي تخرج من رحم سابقتها ؛ فإعظام المرأة زوجها وموافقتها له يؤدي إلى أن تكون مؤثرة رضاه على رضاها وهواه على هواها فيما أحبت أو كرهت ، وهي حينئذ تستطيع أن تستولي على قلب زوجها وعقله وهواه ، فيفعل لها ما تحب ، وتصل إلى ما تريد .

ولأهمية تلك القيمة التربوية الأخيرة ؛ تبتدئها أمامة بفعل الأمر " اعلمي " ؛ وعادة العرب أنها إذا أرادت أن تتحدث عن أمر ذي بال أن تبدأه بهذا الفعل ، حتى يضعه المخاطب في مركز العلم وبؤرة التركيز .

وقد أتبعت فعل العلم الأمري الذي يراد منه النصح والإرشاد أتبعته أمامة بجملة منفية مؤكدة بـ أن " أنك لا تصلين إلى ما تحبين " معلقة حصولها على ما تحبه على ما تذكره بعد ، والوصول يقتضي التتبع وتحديد الهدف والغاية ، فإذا كانت المرأة تتغيا الوصول إلى ما تحبه فعليها ايثار ما يحبه زوجها أولا ، وعموم "ما" يدل على أن ذلك عام في كل ما تحبه المرأة ، فهي بذلك تمنحها مفتاح تحقيق مآربها بسهولة ويسر .

وقد علقت ذلك بـ حتى الغائية " حتى تُؤْثري رضاه على رضاك، وهواه على هواك، فيما أحببتِ وكرهت" ، والإيثار يعني التفضيل ، فهي تفضل وتقدم رضا زوجها على رضاها وهواه على هواها ، ولا علاقة لذلك الإيثار بحبها لما تفعله أو

بكرهها له ، فقد تفعل شيئا هي له كارهة أو غير راغبة ، لكنه يسعد زوجها وهي بذلك تملك مفتاح قلبه وتصل إلى ما تحب .

والرضا هو ما يرتضيه المرء ، والهوى هو ما يهواه ، وهنا ترق من الأدنى إلى الأعلى ؛ لأن من معاني الهوى : العشق [1] ، فرضاه هو الحد الأدنى لما تؤثره المرأة ، بينما هواه وهو ما يحبه أو يعشقه ، فهو الحد الأعلى ، وإذا وصلت المرأة لهذا الحد وصلت إلى تحقيق ما تريد من زوجها ، والطباق بين الفعلين " أحببت وكرهت " يبين أن المرأة في هذا الإيثار تتجرد من أهوائها الشخصية حتى ترضي زوجها .

ثم تختم أمامة وصيتها بالدعاء لفتاتها بأن يختار الله لها الخير "والله يخير لك" أي يختار لك الخير في حياتك الزوجية ، وهي جملة دعائية الغرض منها تفويض الأمر لله بعد الأخذ بالأسباب ، فالإنسان لا يملك نفعا ولا ضرا ، وما أجمل أن يصدر هذا التفويض من امرأة أمية تعيش في بيئة جاهلية لم تستنر بعدُ بنور الإسلام ، ولكنها الفطرة النقية الصافية التي بدت واضحة من خلال تلك الوصية كلها ، لا سيما ختامها بهذا التفويض والدعاء ،

لقد أودعت أمامة في ختام وصيتها خلاصة القول وجماع الحكمة وشتات الوصية ؛ حيث بينت أن المرأة العاقلة إذا أرادت أن تصل إلى ما تريد من زوجها فعليها بتقديم هواه على هواها وإيثار رضاه على رضاها فيما تحبه أو تكرهه ، ومن ثم يسارع زوجها إلى إرضائها وتحقيق مطالبها ومن ثم يتبادل الطرفان العطاء والبذل والتضحية بحب وسعادة وسرور ، وتسير عجلة الحياة الزوجية بسلام وأمن وأمان.

---

(١) مختار القاموس : هـ و ي

الخاتمة

بعد أن عشنا في رحاب هذه الوصية الفريدة من نوعها يمكن أن ننتهي إلى ما يلي:

أولا : وردت الوصية في أغلبها بأسلوب الحقيقة ، وندر فيها المجاز ؛ وذلك لأنها صدرت من قلب أم تنصح بصدق وترشد بحق ، وتحرص كل الحرص على أن تزجي وصاياها لابنتها بوضوح جلي لا تجوز فيه ، لتغلق بذلك باب التردد والاحتمال أو التفسير والتأويل ، وحتى تكون نصائحها لابنتها جلية واضحة وضوح الشمس في كبد السماء .

ثانيا : شاع في الوصية من ألوان البديع الطباق والمقابلة ، وذلك واضح بكثرة في كل فقرة من فقراتها ، وذلك حتى تتمكن الأم من بيان الشيء وضده ، فبضدها تتمايز الأشياء ، ومن ثم يكون ذلك أقرب إلى إقناع الفتاة ، وبيان وجه الحق والباطل والخير والشر ، وأسباب السعادة وأسباب الشقاء ، وعوامل النجاح في الحياة الزوجية وعوامل الفشل ، حتى تضع الصورة كاملة أمام ناظريها ، فتستطيع المقارنة والمقابلة بعقلها ، ومن ثم الاختيار.

ثالثا : شاع في الوصية أسلوب الإنشاء لا سيما الأمر بكثرة ، يليه النهي ، والغرض منهما النصح والإرشاد ،وذلك لأن هذين الأسلوبين هما الطريق إلى إسداء النصح والسبيل إلى توجيه الوصايا ، وكثرتهما في الوصية يطبعها بطابع الجد ويسترعي انتباه الفتاة ، ويلفت نظرها إلى أهمية ما فيها من حكم تضمن لها . إن هي سارت عليها . حياة زوجية يحفها النجاح وتغمرها السعادة والأمان.

رابعا : ظهر لنا من خلال الدراسة أن كل فقرة من فقرات الوصية تشتمل على قيم تربوية متعددة ، تتصل بسعادة المرأة في حياتها الزوجية وتضمن لكل فتاة

مقبلة على الزواج حياة زوجية آمنة مطمئنة ، وقد بدا ذلك واضحا جليا من خلال الوقوف على بلاغة التعبير عن كل قيمة تربوية على حدة.

خامسا : أظهرت الوصية حكمة الأعرابية وخبرتها بالحياة ، وأثبتت أن الخبرة الحياتية والعقل والحكمة الراجحة لا علاقة لها بمعرفة القراءة أو بالأمية ، فهذه امرأة أعرابية عاشت في بيئة جاهلية وهي أمية لا تقرأ ولا تكتب ، لكنها سطرت لنا هنا وصية يعجز عنها المثقفون والكتاب ، تستحق أن تكتب بماء الذهب وتدرس للأجيال.

سادسا : طبعت أمامة وصيتها بالطابع الإنساني العام حين ذيلت كل أمر أو نهي أو تحذير بعلة حكيمة تنزل من العقل والقلب منزلة الرضا والقبول ، وحين خاطبت العقل والقلب ، وحين غاصت في أعماق نفوس الرجال فعلمت ما يسعدهم وما يثير حفيظتهم ، فوضعت يدها على الجراح حتى تبرأ ، وعلى الألم حتى يزول منبهة فتاتها على ما يجب عليها أن تتجنبه وتحذره وتبتعد عنه ، وما ينبغي لها أن تفعله وتحرص عليه ، وجعلت ذلك وثيقة عامة يمكن لكل فتاة أن تتخذها منهج حياة.

فهرس المصادر والمراجع

١. أساس البلاغة تأليف : جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري تقديم : د محمود فهمي حجازي سلسلة الذخائر مايو ٢٠٠٣

٢ـ جمهرة الأمثال – لأبي هلال العسكري – دار الفكر الطبعة الثانية ، ١٩٨٨ تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم و عبد المجيد قطامش

٣ـ جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة المؤلف: أحمد زكي صفوت ـ الناشر: المكتبة العلمية بيروت– لبنان

٤. الجنى الداني في حروف المعاني للحسن بن قاسم المرادي تحقيق : فخر الدين قباوة . محمد نديم فاضل دار الكتب العلمية

٥ـ صحيح البخاري تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر . دار طوق النجاة . الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ

٦ـ صحيح مسلم تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي . دار إحياء التراث العربي – بيروت

٧. العِقد الفريد لابن عبد ربه تحقيق العريان ط/ دار الكتب العلمية

٨. الفاخر للمفضل بن سلمة بن عاصم، أبو طالب (المتوفى: نحو ٢٩٠هـ) تحقيق: عبد العليم الطحاوي مراجعة: محمد علي النجار . الناشر: دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي . الطبعة: الأولى، ١٣٨٠ هـ

٩ـ القاموس المحيط للفيروزآبادى ، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان الطبعة: الثامنة، ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م

١٠. لسان العرب لابن منظور طبعة دار الحديث القاهرة الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ . ٢٠٠٣م

١١ـ مجمع الأمثال – لأبي الفضل النيسابوري الناشر : دار المعرفة – بيروت
تحقيق : محمد محيى الدين عبد الحميد
١٢ . مختار القاموس للطاهر أحمد الزواوي . إصدار الدار العربية للكتاب بيروت
١٣ـ المعجم الوجيز ، إصدار مجمع اللغة العربية . طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم . ١٤٢٠هـ . ١٩٩٩م) .